الواجبات الشخصية

الصحة والتداوى

لو قيل ان العناية بالصحة والمبادرة الى ترميمها بالتداوى كلما تشعَّثت هو من أول الواجبات الشخصية وأوكدها لَما كان في هذا القول مبالغة أو غلو. ألم يقل علماؤنا: ان ما لا يتم الواجب الا به كان واجباً. واذا كان الانسان لم يخْلق في هذا العالم الا لقيامه بالواجبات التى سنسردها في هذا الكتاب، وكان قيامه بها لا يتم الا بالجسم الصحيح القوي - كانت الصحة والقوة وتوفيرهما مما يجب على الانسان بالطبع ليتمكن من قيامه بواجباته المذكورة بنشاط. ومن الأحاديث الشريفة الدالة على هذا المعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ نَفْسُكَ مَطِيَّتُكَ فارْفُقْ بها ﴾

وذلك بأن لا تحمِّلها فوق طاقتها، واذا أصابها ضعف أو مرض فعاجلها بالرَّاحة والعلاج وارجاع الصحة والقوة اليها لتتمكن من الوصول الى أغراضك ومصالحك عليها. وفي هذا المعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الاخر أيضاً:

﴿ إنَّ لجسَدِكَ عليكَ حَقًّا ﴾

وهذا الحديث بنصِّه يدل على أن الصحة من حقوق الجسد التي له أن يطالب بها كما يدل بفحواه على أن مراعاة الصحة وانعاش البدن وتقْويته واجب على المرء كسائر الواجبات الشخصية والاجتماعية الاخرى التي سيأتي ذكرها. وجاء في حديث آخر:

﴿ المؤمنُ القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف ﴾

وقوة المؤمن الجسدية انما تنشأ عن مراعاة قوانين الصحة التي أرشد اليها العقل وحضّ عليها الشرع. ومن هذه القوانين الصحية ـ بل من أجدرها بالعناية والاهتمام ـ النظافة وقد حض عليها الشرع الاسلامي حضاً لم يساوه فيه دين من الأديان ، ناهيك أنه جعلها من جملة فروض الدين التى تتوقف عليها صحة العبادة ، فمن لم يغتسل ولم يغسل أطرافه الفَيْنَةَ بعد الفَيْنَةِ [1] لا تصحّ صلاته . وقدجعلها أيضاً من الإيمان صراحة فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ النّظافةُ من الإيمان ﴾

نعم ان حض الشارع المؤمنين على النظافة وان كان مراعًى فيه الغرض الدينى وهو صحة العبادات والغَرَض الشخصي والاجتماعي وهو أن يُصبح المرء مكرّما بين اخوانه محبّبا الى قلوبهم هو أيضا قد رُوعي فيه الغرض الصحي لأن علاقة الصحة بالنظافة لا تخفى على الجاهل البليد فضلا عن الشارع الحكيم

وجاء في حديث آخر :

﴿ أَخْرِجوا منْديلَ الغَمَرِ من بُيوتِكم : فإنه مَبيتُ الخَبيثِ ومَجْلِسُهُ ﴾

يأمرهم بأن لايبيتّوا معهم فى مخادع نومهم المناديلَ التي يتمسّحون بها من الطعام ، ويكون قد علق بها الوَضَرَ والدسم وهو « الغَمَر » . ثم علّلَ ذلك بان « الخبيث » يبيت في تلك المناديل: ويكمن فيها للأذى والشر . ومن يكون هذا الخبيث سوى الجراثيم أو المواد الضارة التى تسبب الامراض المختلفة ؟ فسماها الشارع بهذا الاسم « الخبيث » كما سماها الطب الحديث « الميكروب » وقد قال بعض كبار المؤلفين المعاصرين: «ان الطب الحديث أيد با كتشافاته

---

(١) أي المرة بعد المرة

الأكيدة صحة قول من قال « النظافة من الايمان » وبين لنا حكمته والسرّ فيه . فقد تحققنا الآن أن كثيراً من الامراض كالكوليرا والجدري تنشأ عن جراثيم تعلق بالجسم . فلذا أصبح أمرُ النظافة ضروريا في المنازل التى نسكنها ، والملابس التى نكتسي بها ، والماء الذي نشربه ، والهواء الذي نستنشقه »

وقد عقدنا في هذا الكتاب فصلا خاصا للنظافة والطهارة بحثنا فيه عنها من الوجهة الادبية والاجتماعية . أما البحث في النظافة في هذا الفصل فمن وجهتها الصحية : إذ قد تقرّر في الفن أن النظافة هي مهد الصحة الذي تنام فيه آمنة مطمئنة قريرة العين

ومما جاء في النهي عن غشيان أماكن الأوبئة والطواعين قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا وَقعَ الطاعونُ بأرضٍ وانتمْ بها فلا تَخْرُجوا منها فِراراً منه ، وإذا وَقعَ بأرضٍ ولستمْ بها فلا تهبِطوا عليها ﴾

وكلّ ما عرف السلف عن هذه الأوبئة وسوء تأثيرها في الصحة العامة أنه ناشيء عن فساد فى الهواء ، أي عن موادَّ عفنة تنتشر فيه ، ثم تؤذي من يستنشقها ، فهم كانوا يهجرون ذلك الهواء الفاسد الى الجبال والمنازه حيث الهواء الطلق النظيف ، النقي من تلك المواد العفنة . وقد تبين في الفن الحديث أن هذه المواد العفنة التي تفسد الهواء قد تعلق بالماء أيضا فتفسده وتسبّب أمراضا سارية للذين يشربونه ثم بعد طول البحث والاختبار وَجدوا أن المواد المذكورة هي كائنات حيَّة ـ نباتية أو حيوانية ـ تنمو وتتكاثر وتتناسل وتنتقل من جسم الى جسم كما هو شأن صغار الحشرات مثل : القمل والبراغيث ، غير أن هذه ترى بالعين المجرّدة وتلك لا ترى . وليس في تصديق هذا الأمر ومراعاته حسب ارشاد الأطباء ما ينافى ارشاد الشارع بل إن كلاً منهما

يحضّ على النظافة ، وتجنّب المكان القذر ، والهواء القذر ، والماء القذر من حيث انها كلها تسبب الامراض

أمّا أمر الشارع لنا بعدم الفرار من أرض الطاعون فلِما فيه من تضييق دائرة المرض وحصره فى بقعة واحدة يُمكن تلافيه فيها ، أما اذا فرّ الموبوءون وانتشروا هنا وهناك فانهم قد يحملون الوباء الى الجهات الاخرى فيفشو مكروبه ، ويستشري فساده ويعود يعسر تلافيه على الاطباء ورجال الصحة ، ولا بدّ أن يكون هناك فوائد أخرى من مثل تهدئة قلوب الناس : فلا يستولى عليهم الوهم والهلع إذا رأوا اخوانهم يفرون فتستعد جسومهم لتقبّل المرض وعلوق جراثيمه بهم ، ومن ذلك التعاون العام على استئصال الداء : ففى فرار الفارّين تخاذل وتواكل وترك طائفة من أبناء الامة فى حالة هم أشدّ ما يكونون احتياجاً فيها الى رحمة إخوانهم ومساعدتهم ، على أن مسائل حفظ الصحة وتناول الأدوية والعلاجات وسائر ضروب الاحتياطات الصحية أمور دنيوية محضة ، وقد أرشدنا الشارع الى الرجوع في مثلها الى الصالحين من أهلها الخبيرين بأسرارها ، فأصبح من واجباتنا الشخصية العمل بما يشير به الطبيب الحاذق من تلك الامور. فلا ينبغى إهمال ذلك والإعراض عنه ، لا سيما أنه هو نفسه ﷺ كان يتناول الدواء ، ويأمر بتناوله ، ويشير على المرضى أن يذهبوا الى الحارث بن كلدة طبيب العرب المشهور . وكان يقول في الردّ على من يحتج بالقدر وأنه لا فائدة من الدواء :

﴿ الدَّوَاءُ مِنَ القَدَرِ ، وقد يَنفَعُ بِإِذْنِ اللهِ ﴾

فانظر كيف نبّه الى حفظ العقيدة مع بيان ان الدواء سبب ، وان الأسباب من جملة القدر الالهي الخفىّ عنا ، وانما يتجلّى لنا في مظاهر نواميس هذا الكون وقوانينه العامّة وارتباط أسبابه بمسبّباته : فهى التى إذا راعيناها مع استبطان

التوحيد كانت تأثيراتها الظاهرة فينا هي أحكام القدَر الذي كان خفيّا عنّا فما معنى التعلّل اذاً بالقدر في ترك هذه الأسباب واهمالها ، والتعرض للأمراض وأهوالها ؟ وممّا قاله صلى الله عليه وآله وسلم في الحثّ على التداوي :

﴿ إنَّ اللهَ أنزَلَ الداءَ والدَّواء ، وجَعلَ لِكلِّ داءٍ دَواءً ﴾

ولا نطيل الاستشهاد على هذا فقد أصبح أمره متعالَماً مشهوراً ، كنهي الشارع ﷺ عن المسكرات كلها ، صيانةً للأمة عن أضْرارها وشرورها الاجتماعية والصحية . والأحاديث في ذلك كثيرة منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اجْتَنِبُوا الخَمرَ ، فانَّها مِفْتاحُ كلِّ شَرٍّ ﴾

ويشبه هذا ما جاء في الحِكَم الاسرائيلية القديمة : « اذا أراد الشيطان أن يدخل مكاناً عسر عليه الوصول اليه ـ أرسل أمامه الخمرة » وقال بعض الحكماء ليست الخمور سوى مصائب مجمعة في الكؤوس » وقد حضّ الشارع على العناية بالصحة واتخاذ الوسائل الموصّلة اليها حتى مالا يخطر بالبال منها : كقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ سافِروا تَصِحُّوا ﴾

فهو يحضّ على السفر لاستفادة الصحة ، فوق ما ينويه المسافر من الفوائد الأخرى : كالمال والعلم . أما كون السفر مفيداً للصحة فلأنّ المسافر في تنقله وضربه في البلاد كثيراً مايصادف مكاناً عذِيّاً[1] ، ويتنشق هواءً نقيّاً . ومن أمثال قدماء اليونان « الصحة في الهواء » . والمسافر في تنقله وركوبه ومشيه أحيانا يرتاض جسده ويتحرك عضله ، ولا يخفى ما في ذلك من الفائدة للصحة . ومجمل القول إن مراعاة صحة الجسد ، وحياطته بالأدوية والعلاجات ، من أهم الواجبات ،

(١) المكان (العذي) بالذال المعجمة هو الطيب الموافق

التي يكلّف بها المرء بحكم الشرع والعقل والاختبار ، ومن وفقه الله اليه ، ورزقه صحة حسنة ، ومزاجاً معتدلا ، كان حائزاً لأعظم ركن من أركان السعادة ، إذ لا سعادة في هذه الحياة من دون صحّة بل إن كان شيء فوق الحياة فهو الصحّة

النظافة والطهارة

ذكرنا في بحث « الصحّة والتداوي » ما للنظافة من التأثير البيّن في صحة الانسان وسلامته من الأمراض ، ونذكر في هذا البحث مبلغ ما للنظافة من التأثير في كرامة الشخص ورفع منزلتـه في نفوس إخوانه ومعاشريه ، وأحسن ما قيل في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أحسِنُوا لِباسَكم ، وأَصْلِحُوا رِحالَكم ، حتى تكونوا كأنَّكمْ شامةٌ في الناس ﴾

وتحسين « اللباس » كما يشمل جَوْدته ونفاسته يشمل نظافته من الأوساخ والأدران ، والاّ فان الثوب الديباج اذا كان وسخاً قذِراً لا يصحّ أن يقال عنه انه حسن . أما « الرّحال » فالمراد بها المنازل والمساكن : فالشارع يحضّنا معشر المسلمين على أن نكون ممتازين عن سائر الطوائف بحسن الثياب ونظافتها ، وحسن المنـازل وطهارة غرفها وأفنيتها ، بل وترتيب أدواتها وأمتعتها ، حتى نُصبح في الناس كأننا شامة في الوجه تزيده كمالا ، وتزينه حسنا وجمالا . وكانت عرب الجاهلية أيضا يلبسون الثياب القذرة الوسخة فحضّ الله نبيَّه في القرآن على مخالفتهم في ذلك فقال تعالى له :

﴿ وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ ﴾

يأمره أن يتطهّر ويطهّر ثيابَه ، وهذا بالطبع تشريع له ولأمته كافة ، فانهم ماداموا مسلمين كان عليهم أن يراعوا هذا الواجب : لأن دينهـم مبنيّ عليـه

كما جاء صراحةً في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ بُنِيَ الإِسْلامُ على النَّظافة ﴾

﴿ النَّظَافَةُ مِنَ الإِيمانِ ﴾

﴿ الطُّهورُ شَطْرُ الإِيمان ﴾

وقال بعض علماء الأخلاق المعاصرين « ليس من المروءة ولا الفضيلة في شيء أن يلبسَ الانسان الوسخَ الرثَّ من الثياب ، وأن يعيش في القاذورات ، فان هذا نقص في الكرامة ، وقذارة فى الظاهر ، وربما دلّت على قذارة فى الباطن . فليحذر العاقل من تلطيخ ثيابه وليتنبه للأمر كل الانتباه » وأمْرُ الشارع لنا معشرَ المسلمين بنظافة الجسم وتطهيره المرّة بعد المرّة ـ اغتسالا ووضوءاً ـ إنما السرُّ الحقيقي فيه تنبيهنا الى تطهير نفوسنا من الرذائل ، وردىء الأخلاق ، والاّ فالمسلم الذي يبالغ فى تطهير ظاهره من الاردان ، وهو مُعْرض عن تطهير باطنه من خواطر السوء ، وفاسد الطباع ، ومساوىء الأخلاق لا يكون فى عمله ، ولا تطهير جسده ، مرضياً لله ، ولا مهتديا الى السرّ من شرائع الاسلام وآدابه الرائعة ، التى كان متحليا بها شارعه عليه الصلاة والسلام ، كما مر بيانه فى بحث « الأخلاق والايمان » وبحث « الأخلاق والعبادات »

ثم إن النظافة أنواع :

(١) « نظافة الاطراف » وهي واجبة على المسلمين معروفة بينهم يمارسونها مراراً فى اليوم

(٢) « نظافة مجموع الجسد » وقد أوجبها الشارع صلى الله عليه وآله وسلم بقوله :

﴿ طَهِّروا هذهِ الأجْسادَ طهَّرَكُمُ الله ﴾

(٣) « نظافة الفم » بمضمضته من الدَّسم وإزالة ما يعلق بين ثناياه من

الطعام ، وفى الحديث :

﴿ مَضْمِضُوا مِنَ اللَّبَنِ فإِنَّ لهُ دَسَما ﴾

فاذا أُمرنا بتنظيف الفمّ من أثر اللبن الحليب كنا مأمورين بالعناية بتنظيفه من غيره بالطريق الأوْلى . وقال ﷺ أيضاً :

﴿ السواكُ مَطْهرةٌ للفمّ ، مَرْضاةٌ للرّبّ ﴾

والسواك اسم للعود الذي تدلك به الاسنان وتنظّف . لكنه غَلَبَ على عود الأراك الذي يكثر شجره في الحجاز . والأصل في ذلك تنظيف الفم بأيّة أداة منظّفة يُشير بها طيب الأسنان

﴿ تَخَلَّلوا فانّه نَظافَة ، والنظافةُ تدعو الى الإيمان ، والإيمانُ مع صاحبه في الجنة ﴾

ومعنى « تخَلَّلوا » استعملوا الخِلالَ وهو العود اللينّ الرفيع يُدْخَل بين الثنايا فَتَنْظُفُ به ممَّا عَلِقَ بها من آثار الطعام

(٤) « نظافة الشعر » بتسريحه وغَسْله بالماء والصابون وتليينه بالطيوب والأدهان ولا يضرّ هذا التكريم في كرامة الشخص وإنما يضرُّ الإغراق فيه ، والتكلُّف له بأكثر من اللازم الى حد التشبه بالنساء . وجاء في الحديث الشريف :

﴿ إنِ اتَّخَذْتَ شَعَراً فأكرِمْه ﴾

وإكرامُه يكون بما ذكرنا حسبما عُرِفَ من فعله ﷺ : فقد كان يغسل رأسه الشريف بماء السدْر ، ويُكْثِرُ دَهْنه ، ويسرّح لحيته . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنَّ اللهَ يُبْغِضُ الوَسِخَ الشَّعِثَ ﴾

والشَّعِثُ : هو الذي يترك شعر رأسه مُغْبرًّا متلبّداً . فلا يتعهّده بالغسل

والدّهن والطيب والتحلاق

(٥) « نظافة الثوب » وحسبك فيها الآية السابقة :

« وثيابَكَ فَطَهِّرْ »

وصفوةُ القوْل أن الشريعة الإسلامية ترشد الإنسان الى العناية بنظافة جسمه وثوبهِ وأثاثه ومسكنه وفِنائه وكل ماله تعلّق به ، وأن لا يُرِيَ من نفسه إلاّ كلَّ حسن جميل في العيون ، مقبول محبوب الى القلوب

العلم والعقل

ان الاسلام دِين علم وعقل قبل كل شيء : فهو قبل أن يكلّف أتباعه تحْصيل أي غرض من أغراض الدنيا يكلفهم بأن يكونوا عقلاء صحيحي الفهم ثاقبي الفكر جيدي البصيرة يتدبّرون الامور قبل الشروع فيها ، ويقلّبون وجوه الرأي في مواردها ومصادرها ومباديها ومصايرها ، فلا تقع الا على مقتضى الحق والعدل والمصلحة والواجب . كما يكلفهم أن يكونوا علماء عارفين بأسباب المصالح ، وطرق المنافع . واقفين على الحقائق الكونية ، مُلمّين بتفاصيل التجارب العملية التى اهتدى اليها البشر في سابق أدوارهم ، ومختلف أطوارهم ، مما يتعلق بتصحيح العقائد والعبادات ، وتقويم الاخلاق والملكات ، واتقان أمر الاحكام والمعاملات ، وترقية شأن الصناعات والتجارات ، وتحسين سائر مقوّمات الحياة

فالقرآن لما دعا الناس الى الاسلام ، وكلفهم قبولَ تعليمه وهدايته كان يقيمُ « العقل » حَكَماً بينه وبينهم . ويُعَجّب من انصرافهم عنه ، وإهمالهم له ، وترك الاهتداء بنوره . فكان يقول وهو يحاجُّهم :

﴿ وكذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعْقِلون ﴾

﴿ فاعْتَبِروا يا أُولي الأَبْصار ﴾
﴿ إنَّ في ذلك لَعِبْرَةً لِأُولي الأَبْصار ﴾
﴿ عِبرَة لِأُولي الألْباب ﴾
﴿ إنَّما يتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْباب ﴾

و« الأبصار والألباب » العقول . وقد تكرّر « أفلا تعقلون ؟ » في القرآن بضع عشرة مرة في صَدَد التوبيخ والتعجيب . وكفى بهذا مزية ومنقبة للعقل مُذْ جُعِلَ للدين أصلا ، ولمصالح الدنيا عمادا . وورد في الحديث الشريف:

﴿ ما تَمَّ دينُ إنسانٍ قطُّ حتَّى يَتِمَّ عقلُه ﴾
﴿ دِينُ المرء عقْلُه ، ومَن لاعقلَ له لادِينَ له ﴾

وانما حرم الخمر في الاسلام خَشْيةَ أن يسطوَ على العقل فيفسده أو يضعفه . والعقل مِلاك سعادة الانسان ، وقِوام حياته

أما العلم فالقرآن رفع من شأنه ونوّه بمنزلته بما لم يسبقه اليه سابق من الكتب السماوية ، فقد قال تعالى :

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الذِينَ يَعلَمونَ والذينَ لا يَعلمونَ ﴾ ؟

بل إذا تدبّرنا أول آيات القرآن نزولا وجدناها تحض على العلم . وترفع من مكانة العلم وهي قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَق . إقْرَأْ ورَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الذي عَلَّمَ بالْقَلم عَلَّمَ الانسانَ مالَمْ يَعْلَم ﴾
﴿ نَ . والقلم وما يَسْطُرون ﴾

فقد نوّه في الآيتين بشأن القلم والكتابة ، والعلم والتعلّم . هذا الشأن من شؤون الحياة ومصالح الدنيا هو أوّل مافاجأ به القرآن البشر المخاطبين ، وأوقعه في أذهانهم . أفلا يكون معنى ذلك أن الاسلام دين علم ، وأنه لايرضى

للمنتسبين اليه إلا العلم . ولا نظن أن كلمة من كلمات القرآن ـ عدا كلمة « الله » ـ تكررت فيه بقدر ماتكررت فيه كلمة « العلم » ، فالاسلام اذاً هو (دين العلم) كما أنه (دين التوحيد)

ولما أراد الله أن يلقن نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم دعاءً يدعو به لقنه أن يطلب في دعائه المزيد من العلم مذ قال له :

﴿ وقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْما ﴾

وورد فى الحديث الشريف :

﴿ العِلْمُ حياةُ الإِسْلام وعمادُ الدين ﴾

والعلم اذا أُطلق في لسان الشرع كان المراد به العلم النافع الموصّل الى سعادتي الدنيا والآخرة : ذلك العلم الذي يتعلّق بمصالح البشر مباشرة ، وله الاثر البين والنفع الظاهر في إتقان تلك المصالح ، وإحكام أمرها ، وتوثيق عراها . أما العلوم المبنيّة على الوهم والتدجيل فان الشارع لايقيم لها وزنا .

وكذلك حضّ الشارع على فهم مسائل العلم فهماً صحيحاً فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ كُونوا لِلْعِلْم وُعاةً ، ولا تكونوا له رُواة ﴾

أي لاتعتمدوا في العلم على مجرد الرواية والنقل من دون أن تعوه وتحفظوه وتتدبّروه ، لتعرفوا طريق المصلحة والمنفعة منه

والعلم لاينمو في نفس صاحبه إلاّ بالعمل والممارسة والتطبيق : فإنّ العمل بالعلم على هذه الصورة يزيده ثباتاً ورسوخاً ويؤدّي الى انكشاف أمور من من ذلك العلم كانت مجهولة ، وانفتاح أبواب الى غوامضه وأسراره كانت مسدودة . وهذا الأصل في العلم مما قرّره الاسلام أيضا في جملة ماقرّر من

الاحكام فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَن عَمِلَ بما عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مالم يَعْلَم ﴾

فالعملُ بالعلم يتسبّب عنه ـ بتيسير الله ـ علمٌ جديد ، ومعرفةٌ غضّة لم تكن حاصلةً من قبلُ. وقال أمير المؤمنين علىّ عليه السلام « كل وعاءٍ يضيق بما جعل فيه الا وعاء العلم فانه يتسع » ووعاء العلم هو العقل ولا جرم أن العقل يتّسع وينمو كلما مُدَّ بالعلم وغُذّي بمسائله . ومِنْ كلام جعفر الصادق عليه السلام « يهتف العلمُ بالعملَ فإن أجابه وإلاّ ارتحل » . والمسلمون في زمن سلَفهم الصالح كانوا على غير ماهمُ عليه اليومَ من أمر العلم والتعلّم ، وحبّ الاستطلاع ، والحرص على تعرف الحقائق ، من غير لَبْس ، والجهر بها من دون ماخشية : فلم يكن أحدٌ من الصحابة ولا التابعين يقبل من آخرَ علماً إلا إذا عقَلَهُ وتدبَّره وفهم السر فيه ، ووجهَ المصلحةِ المتأتيّةِ عنه ، ويقول لراويه : انظر ياهذا ماذا تقول ، وخَفِ اللهَ واحذره فيما تروي من النقول ، أما في هذه العصور المتأخرة فقد اختلط الحابل بالنابل ، واجترأ الراوي والناقل ، وتراكمت على العقول الأبحاث والمسائل ، وصار من مقتضى الورع أن يُذعن المسلمُ لكل ماتنقله الرُواة ، وتتداوله الأفواه ، وإن صادم أحياناً أصلاً من أصول الاسلام ، ولم يقم عليه دليلٌ ولا برهان . وهذه الفوضى العلميّة التى خالفنا فيها سَلَفنا الصالح هي من أكبر أسباب انحطاطِنا عنهم ، وانخزالنا عن مثل مواقفهم ، وفقْدِنا ما كان لهم من عزّ وصولة وملك ودولة ، حتى صدَقَ علينا مضمونُ الآية الكريمة :

﴿ إنَّ اللهَ لا يُغيّرُ ما بقومٍ حتى يُغيّرُوا ما بأَنْفُسهم ﴾

ذكر السيد (أمير علي) الهندي في كتابه (تاريخ الاسلام) انه كان يكتب على مدخل كلّ مدرسة في الاندلس هذه العبارة : « الدنيا تستند على أربعة أركان : علم الأفاضل ، وعدل الأكابر ، ودعاء الصالحين ، وجلال

الشجعان » وكما حذر الشارع من العلم الوهميّ الذي لاينفع حذّر من دُعاته وحَمَلَته ، ونبّه الناسَ الى غوائلهم ، ومغبّةِ الانخداع بهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ وَيْلٌ لأمّتي مِنْ عُلماء السُوء ﴾

وعلماء السوء أنواع : الذين يستحلون الحرام ويحرّمون الحلال ، ويتخذون العلم حبالة لحظوظهم ومنافعهم الخسيسة أو وسيلة للإضرار بالناس . أو يتعلمون من العلوم أوهاما يتنافحون دونها ليستفيدوا من ورائها جاهاً أو حُطاما : وغيرُ هؤلاء ممن اتخذ العلم آلة شرٍّ وضرّ وإفساد . هؤلاء علماء السوء نعوذ بالله من شؤمهم . أما علماء الحق فهم الذين قال فيهم صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أكرِموا العُلَماءَ : فإنهم ورَثَةُ الأنبياء ﴾

﴿ العُلماءُ مَصابيحُ الأرض ، وخُلَفاءُ الأنبياء ﴾

﴿ إنّ مثَلَ العُلماءِ في الأرض كمَثَلِ النجوم في السماء : يُهتَدَى بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبحر ، فإذا انْطَمَسَتِ النجومُ أوْشَكَ أن تضِلَّ الهُداةُ ﴾

﴿ خُيِّرَ سُليمانُ بينَ المالِ والمُلْكِ والعِلمِ ، فاختارَ العلم ، فأُعطيَ الملك والمال لاختياره العلم ﴾

﴿ أقربُ الناسِ مِنْ دَرَجَةِ النُبُوَّة أهلُ العلم والجهاد ﴾

﴿ يُوزَنُ يومَ القيامة مِدادُ العُلماء ودَمُ الشُهَداء فيَرْجَحُ مِدادُ العُلماء على دم الشهداء ﴾

وهاك طائفة من الأحاديث التي تحض على طلب العلم وتبيّن مزايا طلابه وأنه لاخير فيمن عداهم :

﴿ لِكلِّ شيءٍ طريقٌ ، وطريقُ الجنّة العلم ﴾

﴿ الناسُ رَجُلان : عالمٌ ومتعلّم ، ولا خيرَ فيما سواهما ﴾

﴿ مَنْ أَرادَ الدُّنْيا فعليه بالعِلم ، ومَن أراد الآخرةَ فعليه بالعلم ، ومَن أرادهما معاً فعليه بالعلم ﴾ .

﴿ اُطْلُبِ العلمَ ولو بالصِّين . ﴾

﴿ إذا جاءَ الموتُ لطالبِ العلم وهو على هذه الحالة ماتَ وهُو شَهيد ﴾

ومن الأحاديث الواردة في آداب طلب العلم قوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ حُسْنُ السؤال نِصْفُ العلم ﴾

أيْ إنَ مَن رُزِقَ مقدرة على إفراغ سؤاله في قالب سهلٍ بحيث يفهمه استاذه المسئول بسرعةٍ كان ذلك مساعداً على تحصيله علماً جماً

﴿ تناصحوا في العِلم ، ولا يَكْتُمْ بعضُكم بعضا : فان خيانةً في العلم أشدُّ مِن خِيانةٍ في المال ﴾

أيْ كما لايجوز لك أن تخون من ائتمنك على ماله فتكتم منه شيئاً كذلك أنتَ مؤتمن على ماليديك من العلم : فلا يجوز أن تكتم منه شيئاً عن السائلين ، فكلا الكتمانين خِيانة .

﴿ تواضعوا لِمن تتعلَّمون منه العلم ، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم . ولا تكونوا جَبابرةَ العلماء ﴾

أي اذا لاق الكِبْر والعُجب بالجبابرة فإنه لايليق باهل العلم وإنما على الطالب أن يتواضع لأستاذه تواضع إجلالٍ واحترام ، وعلى الاستاذ أن يتواضع لتلميذه تواضع رفقٍ ورحمة وتأنيس

﴿ الحكمةُ تزيد الشريفَ شرفاً وترفعُ المملوكَ حتى تُجلسَهُ مجالسَ الملوك ﴾

﴿ الحكمةُ ضالّةُ المؤمن : أينما وَجَدَها التقطها ﴾

﴿ خُذِ الحكمةَ : لايضرُّك من أيِّ وعاء خرجتْ ﴾

يعنى لاينبغى لطالب العلم أن يتكبر فلا يطلب علماً إلا من العلماء ارباب

المظاهر ونحوهم ، بل عليه أن يلتقط لؤلؤه الرطب من أيّ مكان ويتناول زلاله العذْب من أي ينبوع كان . والمراد بالحكمة فى هذه الأحاديث العلم النافع

ومما أثر عن الحكماء في الحض على طلب العلم وقد اشتهر بين الناس أنه من كلام النبوة قولهم « اطلب العلم من المهد الى اللحد »

(العقل) * أما وقد استوفينا الكلام على الاحاديث الواردة في العلم والتعلم فلنأت على ذكر أحاديث العقل ، وماورد فيه من المزيَّة والفضل . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ العقلُ نورٌ في القلب يُفرَقُ به بين الحق والباطل ﴾

﴿ ما اكتسب المرءُ مثلَ عقلٍ يَهْدِي صاحبَه الى هُدًى أو يردُّه عن رَدًى ﴾

﴿ لكل شيءٍ دِعامةٌ : ودِعامةُ عملِ المرءِ عقلُه : فبقدرِ عقلِه تكونُ عبادتُه لربه . أما سمعتم قولَ الفجار : لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ما كنا في أصحاب السعير ﴾

وروَى أنس رضي الله عنه قال : أُثْنِيَ على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخير فقال لهم : كيف عقله ؟ فقالوا : يارسول الله ان من عبادته . . . إن من خُلقه . . . إن من فضله . . . إن من أدبه . . . فقال كيف عقله ؟ قالوا يارسول الله نُثْني عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال رسول الله :

﴿ إن الأحمقَ العابدَ يصيب بجهله أعظمَ من فجورِ الفاجر . وإنما يرتفعُ الناسُ في دَرَجات الزُلفى من ربّهم على قدر عقولهم ﴾

﴿ أفلحَ من رُزِقَ لُبًّا ﴾

و « اللبّ » العقل أي ان العاقل يكون مصيره النجح والفلاح في معظم أعماله ، وأعمّ أحواله

﴿ ليس الأعمى من يعمى بصره إنما الاعمى من تعمى بصيرته ﴾

و « البصيرة » العقل

﴿ كاد الحليم أن يكون نبيّا ﴾

﴿ الحليم سيّد في الدنيا سيّد في الآخرة ﴾

و « الحليم » العاقل الوقور

ومن آيات وفور العقل في الانسان — كما ورد في بعض الاحاديث — : تدبّر العواقب . والأخذ بالحزم في كل الامور . وترك الاماني ، والتعلّات الفارغة . والتودد الى الناس . ومداراتهم . والحياء . وحسن الخلق . وصدق الفراسة . ومخالفة هوى النفس . والاعتبار بحوادث الزمان * وقيل لعليّ عليه السلام صف لنا العاقل فقال : هو الذي يضع الشيء مواضعه. فقيل : صف لنا الجاهل قال : قد فعلت

الصبر والشجاعة

هما من الواجبات الشخصية التي ينبغي للمرء أن يتذرع بها ويروّض نفسه عليها منذ زمن الحداثة . والصبر في أصل معناه اللغوي الحبس . وهو باعتبار متعلّقه ينقسم الى ثلاثة أقسام : (الصبر عن . . .) و (الصبر على . . .) و (الصبر في . . .) :

(فالاول) حبس النفس وردعها عن فعل السوء والشر ودواعي الهوى والشهوة وكل مايمس كرامة الانسان ويشوّه سمعته

و (الثاني) أن يحبس نفسه ويوطنها على المكروه والألم وتحمل الرزايا والمصائب وكل مايقلق الراحة وينغص العيش . ومن ذلك الصبر على مايفوت الانسان من المآرب والحظوظ الدنيوية

و(الثالث) أن يحبس نفسه ويمنعها عن التقهقر في مواطن الخوف والذعر بل في مواطن الخطر أحياناً، وذلك دفاعاً عن حق ، أو حماية لمصلحة ، أو وقاية لعرض وشرف . وهذا النوع من الصبر يسمى الشجاعة والاقدام . فالشجاعة مما يشمله الصبر بدليل قوله تعالى في صفة طائفة من الابرار :

﴿ والصابرينَ في البَأساءِ والضرّاءِ وحينَ البأس ﴾

(فالبأساء والضراء) الضيق والفقر والمرض ، و(البأس) الحرب : فهؤلاء الابرار كانوا يصبرون لدى المصائب والآلام والكروب ، كما يصبرون في المخاوف واشتداد هول الحروب .

وقال بعض الحكماء « ليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والتعب ، لأن هذا تشاركه فيه الدابة . ولكن أن يكون للنفس غلوباً ، وللخطوب حمولا ، وبأشه عند الملفاظ مرتبطاً » أي مالكاً نفسه عند الغضب

وهذا الخلق (أعني الصبر والشجاعة) من دعائم الاسلام ومن أخص الصفات التي يجب أن يتخلق بها المسلم . وإذا أردنا أن نعزو نجاح الاسلام وظهور أمره وانتشار كلمته في العالم الى خلق من الاخلاق وجب أن يكون هذا الخلق هو خلق (الصبر والشجاعة) اللذين تشبَّعَتْ بهما نفوس سلفنا الصالح ، وأبطالنا الاقدمين . قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه « خمسٌ خذوها عني : ألا لا يَرْجُوَنَّ أحدٌ إلاَّ رَبَّه . ولا يخافن إلا ذنبه . ولا يستنكف أن يتعلم ماليس عنده . وإذا سُئل عما لا يعلم فليقل لا أعلم . والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد» هـ . وقال أيضاً : « لا يعدم الصبورُ الظفرَ وإن طال به الزمان»

وإن أعز شعوب هذا العصر ، وأرفعها شأناً ، وأوسعها سلطاناً ، هو

الشعب الذي عُرف من أخلاقه الصبر والثبات في مواطن الاخطار ، ولَدَى اشتداد الاهوال: فهو يُعِدُّ للأمور عدّتها ، ويهيئ لها أسبابها ووسائلها. ثم يصبر صبراً بعد صبر حتى يحين الوقت ، وينضج الامر . واذ ذاك يجني ثمرَتَه ، ويحتجن فائدته . هذا الخلق يصح أن نسميه (الخلق القرآني) لكثرة ماذكر في القرآن من التنويه به ، والحض عليه ، في أكثر من سبعين آية . من ذلك قوله تعالى :

﴿ واصبرْ على ما أصابَكَ : إنَّ ذلك من عَزْمِ الأمور ﴾

ومعنى كون الصبر من عزم الامور انه مما يتأكد طلبه وتتحتّم على الشخص ممارسته من أمور الأخلاق . لان هذا معنى العزم في اللغة . ويكون ذلك شاهداً على صحة اطلاق كلمة « الواجبات الشخصية » على الاخلاق ، والسجايا النفسية . وقوله تعالى :

﴿ وانْ تصبروا خيرٌ لكم ﴾

﴿ انَّ اللهَ مع الصابرين ﴾

﴿ وجعلنا منهم أئمةً يَهدونَ بأمرِنا لَمّا صبروا ﴾

أى انما كان أولئك القوم من المفلحين ، والأئمة المهتدين الهادين ، لانهم كانوا متصفين بالصبر في عامة أحوالهم . وقال تعالى :

﴿ كأنهم بُنيانٌ مَرصوص ﴾

أي إنه تعالى يُعجبه من أولئك المدافعين عن الحق أن يكونوا في موقف دفاعهم متساندين متلازمين بما وَطّنُوا نفوسهم عليه من الصبر والثبات حتى يصبحوا كالبنيان الذي تراصّت أحجاره ، وتماسكت جنادله .

وأحاديث الصبر والشجاعة كثيرة منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم ـ يبين مكانة الصبر ، ومنزلته من سائر آداب الاسلام ـ :

﴿ الصبرُ من الأيمانِ بمنزلة الرَّأس من الجسد ﴾

﴿ الصبرُ سترٌ من الكروب ، وعونٌ على الخطوب ﴾

﴿ إن الله يحبُّ الشجاعةَ ولو على قتل حية ﴾

أي يجب الصبر في مواقف دَرْءِ الأخطار والإقدام على دفع أذى كلّ مؤذ حتى ما كان قليل الشأن كالحيَّة . فكيف ترى الشارع الاسلامي يُحب شجاعة الشجاع في المواطن العظام كما إذا كان يدافع عن حق مقدس عامّ ينتج عنْ الجبن فيه ، والنكوص عنه ، ضياع أمّةٍ برمّتها مثلا

﴿ آفةُ الشَّجاعةِ البَغْيُ ﴾

يحذّر في هذا الحديث الشجاعَ من استعمال شجاعته وجلادته في الشر والفساد فَيبْغي على غيره أو يبخسه حقاً من حقوقه

﴿ الصبرُ عندَ الصَّدْمةِ الأُولى ﴾

في هذا الحديث أيضا تنبيه للشجاع أو كل مَنْ كان في حالةٍ تستدعي ثبات القلب والصبر أن يُوطّن نفسه ويُنعش فيها خلُق الصبر والثبات لِأوَّلّ مفاجأة العدوّ أو الكارثة أو البلاء ، حتى إذا تيسَّر له الصبر في ذلك الوقتِ واستمرَّ عليه لا يلبث حتى يُلْقى في نفس خصمه أو مؤذيه الهيبةَ والاكبار . وربّما اضطره بصَبره هذا الى الهزيمة والفرار . أما إذا لم يَصْبر لدى الصدمة الأولى واستسلم للخوفِ والجزَع أطمع خصمه فيهوَجرَّأه عليه . ثم صعُب عليه بعدَ ذلك أن يرجع الى قوّته ويملك عنان نَحيزتِهِ (نفسه)

وقد اتفقت كلمة أهل الأدب على أن أبلغ ما قيل في الحضّ على الصبر والشجاعة قول قَطَري بن الفُجاءةِ البطل العربي المشهور :

أقول لها وقد طارتْ شَعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعي [1]

---

(١) الضمير في (لها) يرجع الى النفس (طارت شعاعاً) كناية عن انتشار النفس وتفرقها هلعا بحيث لا يعود يمكنها أن تستجمع قوتها

فانكَ لو سألتِ بقاءَ يوم على الأجل الذي لك لم تُطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيلُ الخلود بمُستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عزٍّ فيُطْوَى عن أخي الخنَعِ اليَرَاع (١)
سبيلُ الموت غاية كلّ حيٍّ فداعيه لأهل الأرض داعي (٢)
ومن لم يُعْتَبَطْ يَسْأَمُ ويَهْرَمْ وتُسلمه المنونُ إلى انقطاع (٣)
وما للمرء خيرٌ من حياةٍ إذا ما عُدَّ من سقط المتاع (٤)

وكأنَّ الشاعر الافرنسي عقد هذا المعنى الذي قاله شاعرنا العربي فقال ما ترجمته :

« اذا خسر المرء كلَّ شيءٍ »
« ولم يَعُدْ له أَمَلٌ في استرجاع ما فقَدَ »
« كانتْ حياته عاراً عليه »
« وأصبح الموتُ أحدَ واجباته »

بقي أمرٌ جدير بالذكر : وهو أنه يشترط في النوع الثاني من أنواع الصبر الذي سميْناه « الصبر على الآلام والمصائب والكوارث » شرطٌ لابدّ من مراعاته وتحقّقه : ذلك ان المصائب والمكاره التي تنزل بالشخص قسمان : قسم لا يكون فيه حيلة ، ولا لدرئه وسيلة ، كما إذا مات للشخص ابنٌ أو أخ عزيز

---

(١) «الخنع» الذل : و«اليراع» الجبان . ومعنى البيت أن ثوب البقاء وطول الحياة لو كان ثوب عز وشرف لطوى وأبعد عن الذليل الجبان فلم يلبسه . لكننا لما رأيناه قد لبسه وتباهى به علمنا أنه ليس بثوب عز ولا فخار

(٢) اللام في قوله «لأهل الأرض» متعلق بداعي في آخر البيت أي ان داعي الموت يدعو أهل الارض كلهم ولا يستثنى منهم أحدا

(٣) « ومن لم يعتبط » أي ومن لم يمت شاباً صحيحاً مات بعد هرم وسأم من الحياة . فالموت واقع على كل حال

(٤) «سقط المتاع» رديئه وما لا قيمة له منه : أي اذا علم المرء انه سيحيى ذليلا في هذه الدنيا لم يعد يبقى لحياته معنى ، ولم يعد له فيها خير وفائدة

أو عَمِيَ أو إيفَ بعض أعضائه [1] فالصبر الجميل إذ ذاك على المصيبة أمر محمود

(الدهرُ لا يبقى على حالةٍ لابد أن يُقبـلَ أو يُدبرا)

(فان تلقَّاك بمكروهه فاصبر فانَّ الدَّهر لن يصبرا)

والقسمُ الآخر أن ينزل بالشخص نازلة أو مصيبة يكون له حيلة في تفريجها أو وسيلة في تخفيفها . فالصبر على هذا المكروه محمود أيضا : لكن يشترط مع هذا الصبر الاجتهاد والعمل على اتخاذ السبب والوسيلة في دفعه ، والتخلّص منه . أما الاستسلام الى المكروه ، والصبر على المصيبة ، والتقاعد عن دفعها بالطرق والوسائل المشروعة الداخلة تحت الطاقة فليس ممّا يرضاه الشرع ولا العقل لنا ، ولا يكون الصبر عليه صبراً محموداً ، ولا خلقا مشهوراً :

ينزل بالمرءِ فقر أو ضائقة وله عيال يتضوَّرون جوعاً وأسباب الرزق ممهَّدة بين يديه فيعرِض عنها ويقول : انهُ صابر وان الصبر مفتاح الفرج

يُصاب المرء بمرض مؤلم ويكون له علاج أو دواء ناجع او مخفّف باذن الله فيتقاعد المريضُ عن تناول ذلك العلاج ويقول عن نفسه انه صابر وان الصبر سلاح المؤمن .

يعتدي مُعتدٍ عليك . أو يغتصب بعض حقك ويكون في مكنتك كفّ أذاه بإحدى الطرق والوسائل لكنك لا تفعل بل تذلُّ وتخضع وتدعي أنك صابر وأن الله مع الصابرين ، في نظير ذلك من أحوال الناس وأطوارهم التى تتكرّر مشاهدها تحت مواقع أبصارنا من وقت الى آخر . وكلُّ هذا لا يقال انه من الصبر المحمود ، ولا ينبغي أن يُقرَّظ صاحبه عليه . وانَّ استنكار ذلك وبُعْدَه عن الأخلاق ومنافاته للواجبات الشخصية ـ أمرٌ ظاهر لا يحتاج الى استدلال بل يكاد يكون الشعور باستنكاره من الوجدانات الطبيعيَّة وكثيراً ما سُمّى هذا

---

(١) ايف أصيب بآفة أو عاهة

الصبر الممقوت باسم « التوكّل » واشتبه به: فتُذِلُّ أُمّةٌ أُمّةً وتدوس حقوقها ثم يقال للامة المُسْتَذَلَّة « اصبري وتوكلي، إن الله مع الصابرين والله يحب المتوكلين » وهذا في الحقيقة خداع وتغرير، وانّ صَبْرَ هذه الامة وتوكلها ـ اذا تظاهرت بالصبر والتوكل ـ ليسا من الصبر والتوكل الاسلاميين في شيء ما دام في طاقتها الاستعداد واتخاذُ الأسباب لدفع الشرّ، واسترداد الحقّ، والاحتفاظ بالكرامة. وقد مُني المسلمون في أُخْرَيات أيامهم بشيء من هذا الصبر والتوكل الممقوتين بحيث التبس أمرهما عليهم أو لبّسوه على أنفسهم بالصبر والتوكل الشرعيين وليس المقام بمتّسع للافاضة في هـذا البحث بأكثر مما ذكرنا، ولا للاستشهاد عليه من النصوص الشرعية وأعمال النبي ﷺ والصحابة والتابعين بأكثر مما أشرنا. وانما نكتفي ببيت من الشعر قاله تابعي جليل من أصحاب سيّدنا علي رضي الله عنه ـ وهو أبو الأسود الدؤلي واضع علم النحو ـ وهو قوله :

اذا كنتَ مَعْنِيّاً بأمرٍ تريده فما للمَضاءِ والتوكل من مِثْلِ

يقول اذا كان يهمُّك قضاء أمر من الامور فلا طريقة للوصول اليه أحسن من المضاء والتوكل، والمضاء النشاط وصدق العزيمة في طلب الأمر

فانظر كيف قرن التوكل وهو الاعتماد على الله بالمَضاء والجِدّ فيكون التوكل في اعتبار سلفنا الصالح هو ما اقترَن بالسعي والعمـل، لا بالتقاعد والكسل. وفي هذا الآنَ بلاغ، وربما عدنا الى بحث التوكل في مناسبةٍ اخرى

الغضب والاعتدال

من أهمّ الواجبات التي يجب على المرء ممارستها والتخلّق بها، تطهير النفس من خلق الغضب وبوادر الحدّة. وان من يتساهل في ذلك ويدع هذا الخلق الذميم يستولي عليه كان كمن ترك الثعبان ينساب في جَنبات داره، أو وضع

برميل البارود على مقربةٍ من سرير نومه : فهو في كل وقت معرض للخطر والوقوع في الهلكة ، وقد أشار القرآن الحكيم الى ان الغضب من اخلاق الكافرين وسماه « الحمية الجاهلية » ، وجعلَ الرفق والاعتدال من خصال المؤمنين وسماه « السكينة » فقال تعالى :

﴿ وجعلَ الذين كَفَرُوا في قُلُوبِهِمْ الحميَّةَ حَمِيَّةَ الجاهليَّةِ فأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَه على رَسُوله وعلى المُؤمنِين ﴾

ومن أحسن ماورد في السنّة النبوية من النهي عن الغضب أن رجلاً قال : « يارسول الله : مُرْنى بعمل وأقلل » طَلَبَ أن يأمره بشيء قليل الكلفة يفْهَم بسهولة، ويُمارس بسهولة . فقال له صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لاتَغْضَبْ ﴾

فأعاد عليه الرجل السؤال مراراً والنبي صلى الله عليه وسلم في كلّ مرّة يجيبه بقوله « لاتغضب » فهو كأنه يقول له : اضمن لى من نفسك ترك الغضب وأنا اضمن لك كل خير

واعلم أن الغضب يفقد المرء عقلَه ، ويملك عليه رشده . فلا يعود يهتدي الى وجه الحق في الاعمال والأقوال ، ثم لايلبث حتى يتورّط في الشرّ والوبال . وإن تأثير الغضب ونتائجه في نفس الشخص وفي أعماله ومصالحه يشبه من كل الوجوه تأثير الخمر والمسكرات . وكما قالوا في الخمرة « إنها مفتاح كل شرّ » قالوا هذا القول نفسَه في الغضب « انه مفتاح كلّ شر » فكلٌّ منهما غولُ العقل، وآفة الفضْل . قال عليٌّ عليه السلام « الحدَّة ضرب من الجنون ، لأن صاحبها يندم ، فان لم يندم فجنونه مستحكم » وكم في الناس من ذي مواهبَ عالية ، ومراتب في الذكاء والنبوغ سامية ، لم يقدر أن يملك عنان غضبه ويسكّن من حدّة مزاجه . فكان ذلك مُسقطاً لحرُمته ، مقلّلاً في النفوس من قيمته . وكثيراً ماحال خلقه هذا

بين الناس وبين الإطافة به ، والانتفاع بعلمه ومواهبه بل طالما . هُدِمَ بحدّته ، ما كان بناه من الاعمال والمشاريع بنيّر فطنته .

ومن الأحاديث الواردة فى ذمّ الغضب ، ومدح الرفق والاعتدال ، قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لا تَغْضَبْ ولكَ الجنَّة ﴾

﴿ ألا أدُلُّكم على أشدّكم ؟ أمْلَكُكم لنفسه عندَ الغَضَب ﴾

﴿ أشدُّكم مَنْ غَلَبَ نفسَه عندَ الغضب . وأحْلَمُكم مَنْ عَفَا بعد المقْدِرَة ﴾

ويعنى بقوله (اشدّكم) أقواكم وأقدركم على الغَلَبَة . والعفو بعد المقدرة من أكبر علامات الرفق والاعتدال ، وامتلاك نَزَوَاتِ النفس وبوادر الغضب.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ وَجَبَتْ محبَّةُ اللهِ لمَنْ غَضِبَ فحَلِم ﴾

﴿ مَنْ يَغْفِرْ يَغْفِرِ اللهُ له . ومَنْ يعْفُ يَعْفُ اللهَ عنه . ومَنْ يَكْظِم الغَيظَ يأجُرْهُ اللهُ ﴾

﴿ مَنْ يَكْظِمْ غَيْظًا وهُوَ يَقْدِرُ على إنْفاذِه مَلأَ اللهُ قلبَهُ أمْنًا وإيمانًا ﴾

و « كَظْمُ الغيظ » كنايةٌ عن كفّ الغضب وإطفاء جمرته

﴿ إذا غَضِبَ أحدُكمْ فلْيَسكُتْ ﴾

﴿ ألا إنّ الغَضَبَ جَمْرَةٌ تَوَقَّدُ في جَوْفِ ابنِ آدَمَ : فإذا وَجَدَ أحدُكم شيئًا مِنْ ذلك فالأرضَ الأرض ﴾

في هذين الحديثين وصفٌ لما به يسكن الغضب . وذلك بأن يشتغل الغضبان بما يَصْرِفُه عن التفكير فيما كان سببًا لإثارة غضبه : فيسكت بَتَاتًا أو ينهض عن جلوس ، أو يجلس عن قيام ، أو يتوضأ بالماء البارد ، أو يباشر غيرَ

ذلك الى مما يُنسيه غَضَبَهُ ويُرجعه الى حالة السكينة والاعتدال. وقال بعض الحكماء « لاتدع عزّةَ الغضب تصير بك الى ذِلّة الاعتذار» يعني أن الغضبان المسترسل في غضبه قد يشعرُ في نفسه بشيء من العزة والتعالى غير أن هذه العزّة الحمقاء تؤول أحياناً كثيرة الى الندم على ما كان فرَط منه ، فيُضطَرُ الى الاعتذار ، وطلب العفو . وكفى بهذا ذِلةً ومَهانة . وقال آخر « الغضب على من لا تملك عجز ، وعلى من تملك لؤم » والمعنى أنك اذا غضبت على شخص لاتملك القدرة عليه ولا البطش به كان غضبك عجزاً لا فائدة منه ، ولا تأثيرَ له . واذا غضبت على شخص هو في قبضة يدك ، وتحت سلطتك ، فمثل هذا يحتاج الى عطفك ورحمتك . فاذا غضبت عليه ، ونلتَ منه كان عملك لؤما ودناءة : اذ ليس من الكرم عقوبة من لم يجدْ امتناعاً من السطوة

بقيتْ ملاحظة جديرة بالتدبّر : ذلك أننا اذا نهيناك عن أن تضع بارودا في غرفة نومك ليس معناه أن لايكون عندك بارود تضعه حيث تأمن عليه الانفجار وخراب الديار . وتدّخره لوقت الحاجة التي اخترُع البارود من أجلها . وهكذا غضبك ينبغي أن تكظمه فلا تغضب على أحد من أجل سفساف الأمور ومحقراتها . وفي أحوال لامعنى للغضب فيها بل تكون مما يسهل تسويته بالرفق واللين والحسنى . أمّا اذا رأيت أمامك جريمة تُقْتَرَف ، أو ظلماً يُرتكب ، أو عرضاً ينتهك ، أو كرامة تمتهن ، أو حقاً يُداس ، أو عهداً يُخاس ، فأنه اذ ذاك لايكون معنى للرفق واللين ، ولايكون كفّ الغضب من أخلاق الأنبياء والمرسلين . بل بالعكس يجب الغضب في وجوه الظالمين المعتدين . والشدّةُ والغلظة على الآثمين الجاهلين

« ولاخيرَ في حِلم اذا لم تكنْ له بوادر تحمي صفوَهُ أن يُكدّرا »

ويُسمّى الغضب الشريف إذ ذاك شجاعة أدبية وأنفَة وحميّة .

الصدق والكذب

نسبةُ الصدق والكذب الى حياة الشخص وقيمته الأدبية في هذا الوجود كنسبة الأساس الى القصر المشيد فوقه : فاذا كان الاساس محكم الوضع ، متين الصُّنع استمر البناءُ الى ماشاء الله وأمِنَه أصحابه : فسكنوا فيه وأوَوْا الى ظِلّه ، وإلا حذروا منه ، وأوصى بعضهم بعضاً بالا بتعاد عنه . ثم لايلبث أن ينهار ، وتعفو منه الآثار . وهكذا المرء إذا اعتاد الصدق في أقواله وأفعاله أحبَّه الناس ووثقوا به ، وائتمنوه في المعاملة والمعاقدة ، وكان عضواً عاملا في خدمة قومه ووطنه . وإذا عُرفَ منه الكذب زهدُوا فيه ، وملّوا مجلسه ، وشكُّوا فى كل قول يصدر منه . كما يرتابون في كل عمل يُزْمِعُه أو يدعو اليه . ثم يُصبح في المجتمع كالعضو الأشلّ لايُنتفع به ، ولا يُعتمد عليه . فعلى الصدق والكذب يؤسس مستقبل المرءِ ومركزه الشخصيّ . وبمقياسهما تحدَّدُ درجة اعتباره ونجاحه في هذا الوجود . فلا غروَ إذاً أن يستمسك العاقل بعروة الصدق ولو أدّى به الى الضرر ، أو وقف معه موقف الخطر . كما يتجنّب الكذب ، ولا ينخدع بزخرف عاجله ، ونشوة باطله . . قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ تحرَّوُا الصدقَ : وإنْ رأيتُم فيه الهلكَةَ فانّ فيه النّجاة . وتجنَّبُوا الكذِبَ وإن رأيتم فيه النجاةَ فإن فيه الهلكَةَ ﴾

وقد شدَّد الاسلام فى النهى عن الكذب ، وتعيير الكاذبين . والحضّ على الصدق وتقريظ الصادقين فى غير ما آيةٍ وحديث من آياته وأحاديثه . من ذلك قوله تعالى :

﴿ إنما يَفتري الكَذِبَ الذينَ لايُؤمِنونَ بآيات اللهِ ولهمْ عَذابٌ عَظيمٌ بما كانوا يَكْذِبون ﴾

أي إنما عذّبوا ذلك العذاب القاسي بما كان منهم من الكذب والافتراء . وقال تعالى على لسان طائفة من الابرار يَبْرَأُون الى الله من أن يكونوا ارتكبوا مانسب اليهم من الكذب :

﴿ ما يَكونُ لنا أنْ نتكلَّمَ بهذا . سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عظيم ﴾

ويُروى أن قائلاً قال : يارسول الله أيكون المؤمن جبانا ؟ قال « نعم ». قال أفيكون بخيلاً قال « نعم ». قيل : أفيكون كذّابا ؟ قال « لا » فانظر كيف جعل الكذب لايجتمع مع الإيمان أبداً . ويشبه هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ يُطْبَعُ المؤْمِنُ على كلِّ خُلُق إلاَّ الخِيانة والكَذِب ﴾

﴿ لاتجْتَمِعُ خصلتانِ في مؤْمِنٍ : البُخْل والكَذِب ﴾

﴿ آيةُ المنافِق ثلاثٌ : إذا حدَّثَ كَذَبَ ، وإذا وعَدَ أخْلَفَ ، وإذا أُؤْتُمِنَ خان ﴾

﴿ كبُرَتْ خِيانةً أنْ تُحَدِّثَ أخاكَ حديثاً هوَ لكَ به مُصَدِّق وكُنْتَ له به كاذب ﴾

﴿ عليكُمْ بالصِدْقِ فإنه مع البِرِّ وهما في الجنّة . وإياكم والكَذِبَ فإنه مع الفُجور وهُما في النار ﴾

﴿ أعظمُ الخطايا اللسانُ الكَذُوب ﴾

﴿ أحبُّ الحديثِ الىَّ أصْدَقُه ﴾

﴿ ويْلٌ للَّذي يُحَدِّثُ فيكْذِبُ ليُضْحكَ به القومَ ، ويلٌ لهُ ، ويلٌ لهُ ، ويلٌ لهُ ﴾

﴿ إياَّكمْ والكَذِبَ : فإنَّ الكَذِبَ لايَصْلُحُ في الجِدِّ ولا الهَزْل . ولا يَعِدِ الرجلُ صبيَّهُ ثم لايفى له ﴾

نهاك الشارع عن الكذب مطلقا حتى مع طفلك الصغير فهو لم يجوّز لك أن

تعِدَه بشيء ثم تخلف . فإنك بذلك تدرّبُه على الكذب من جهة ، وتفتح على نفسك باب تعب من جهةٍ ثانية : فان حاجات الصغير لاتنفد وتكليفه لك لاينقطع . فاذا كذبتَ عليه مرة لم يَعُد يصدّقك . فهو يلحّ عليك بطلب حاجاته . وكلما وعدته شك في وعدك وكرّر الطلب والاستيثاق منك الى مالا نهاية .

(كذَبْتَ وَمَنْ يَكْذِبْ فإنّ جزاءه إذا ما أتى بالصدق أنْ لايُصدَّقا)

ويُرْوى أن ليلى بنت أبي خيثمة نادتْ ابنها الصغيرَ قائلةً « ياعَبْدَ الله ! تعالَ هاكَ » فقال لها صلى الله عليه وسلم « وما تعطيتَنُه » قالت « تمْراً » فقال :

﴿ أما إنَّكِ لو لمْ تعطِيهِ كُتِبَتْ عليك كذبة ﴾

وإن مانصح لنا به صلى الله عليه وسلم من النهْي عن الكذب على الصغير (ومثله المرأة) هو الحقُّ والخيرُ في راحة البيت ونظام العائلة . وإن المرأة أرفع شأناً من أن يُكذب عليها ويُنظر اليها كالطفل الصغير . وهي متأهلة اذا اعتُني بتربيتها أن تبلغ أعلى درجات الكمال والفضيلة ، والقيام بالواجبات الشخصية والاجتماعية معاً . على ان ربّةالبيت والطفل والخادم اذا آنسُوا من ربّ البيت كذبا وخداعا جارَوْه في هذا المِضْمار ، وغنّوا بابشع الأنغام على هذا المزمار . ولاشيء يضمن الراحة والهدوَّ في العائلة مثل أن يجعل رَبُّها عماد معاملته لافراد أسرته الصدْق والاخلاص وتحرّي الحق في القول والعمل . فان الامور بينهم إذ ذاك تمشي على السداد ، ويتقلّص من البيت ظل الشرّ والفساد . وجوّز بعضهم الكذب في الحرب لأن الحرب كما ورد خدعة . غير أنه ينبغي التورية والتعريض في ذلك وتجنب الكذب الصريح . ومثله الكذب في إصلاح ذات البين ، بين الأخوين أوالصديقين : استحسنوا ذلك مع مراعاة التورية والتعريض في القول والنقل . ويدخل في بحث الصدق والكذب الوفاءُ بالوعد ، والنكثُ به ، والفرق بينهما أن الاولين يكونان في الأخبار الماضية ، والأخيرين

في المواعيد الآتية . وجميعُ ما وَرَدَ في القرآن والحديث مما يتعلّق بالصدق والكذب حضاً ونهياً ينطبق على الوفاء والخُلف ويشملهما : فإنها كلها تتشعّب من أصل واحد ، وتنتهي الى أثر واحد . قال الجاحظ : « الصدقُ والوفاء توأمان ، وفيهما صلاحُ الدين والدنيا . والكذب والغدر توأمان ، وهما سبب كلّ تفرقة وفساد » وانظر في الحديث السابق كيف نهى ﷺ عن الكذب وأتبعه بقوله :

﴿ ولا يعِد الرجلُ صبيَّه ثم لا يفي له ﴾

فجعل الوعد والوفاءَ من شُعَبِ الصدق أو من أنْوَاطِه

ومن أحسن أبيات الحِكَم في الحضّ على الوفاء بالوعد والاحتياط في أمره قولُ أبي الأسود الدُؤلي رضي الله عنه وهو:

(واذا وعدتُ الوعدَ كنتُ كغارمٍ دَيناً أقرَّ به وأحضر كاتبا)
(حتى أُنفِّذَه على ما قلتُه وكفى عليَّ به لنفسيَ طالبا)
(واذا منعتُ منعتُ منعاً بيّناً وأرحتُ من طول العناء الصاحبا)

يقول إنه إذا وعد آخرَ التزمَ وعده واكّده على نفسه كما يلتزمُ المديونُ أداءَ دينه بالإقرار به ، وتسجيله في صكٍّ عن يد كاتبٍ حتى ينفذه في أجله المعلوم . وانه هو لا يحتاج الى مَنْ يذكّره بالوعد ، ولزوم الوفاءِ به فانّ نفسه هي الكفيلةُ بذلك . ثم إنه إذا أحسّ من نفسه العجز عن الوفاء لصاحبه بالوعد الذي وعده بيَّنَ له من أول وهلة أنه غير قادر على الوفاء والإنجاز ويكون بذلك قد أراح صاحبه من التعب والعناء وطول المراجعة . فنعم هذا الخُلق الكريمُ من أبي الأسود وحبّذا لوْ قلّده فيه الكثيرون من الناس

ونختم هذا البحث بما رواه القاضي عياض في الشفاء عن عبد الله ابن أبي الحمساء قال :

بايعتُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببيعٍ قَبْلَ أن يُبْعَثَ وبَقِيَتْ له بقيّة (أي من المبيع) فوعدته أن آتيَهَ بها في مكانه أي حيث عُقد البيع فنسيتُ ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام فجئت فاذا هو في مكانه فقال :

﴿ يافتى لقد شَقَقْتَ عليَّ : أنا هٰهُنا منذ ثلاثٍ أنتظِرُكَ ﴾

الحياء والاحتشام

« الحياء » ومثله « الاحتشام » انقباض النفس من الشيء وتركه حذَراً من اللوم فيه . أما « الخجل » فهو الإفراط في « الحياء » بحيث يضطرب المرء ويتحير من شدة « الحياء » أو بحيث تنقبض نفسه من فعل الشيء الذي لاينبغي الاستحياء منه . « فالحياء » هو الاعتدال في الخلق ، وهو محمود . والخجلُ الافراط أو تجاوز الحدّ فيه ، وهو مذموم . وهذا ككثير من الأخلاق التي يُتجاوز فيها حدُّها المحمود الى ضده : كالسَّرفِ بالنسبة الى الجود . وكالتهورِ بالنسبة الى الشجاعة . وكالحرص بالنسبة الى الكسب . وقد قال الحكماء «حياء الرجل في غير موضعه ضعف » وقالوا أيضا « الحياء يمنع الرزق » ويشبه أن يكون خلُق « الحياء » أثراً من آثارِ العقل فى الانسان أو هو مظهر من مظاهره الكبرى : اذ أنهما كليهما يعقلان المرءَ ويحبسانه عن فعل السوء والشرّ . قال الامام الغزالى : إذا رأيتَ الطفلَ يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل في نفسه ، وهذه بشارة تدلّ على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب فيه : فالصبيُّ المستحي لا ينبغي أن يُهمل بل يُستعان على تأديبه بحيائه . وقد جعل الشرع الاسلامى هذا الخُلق أيضاً من الأخلاق المقوّمةِ للإيمان ، والمتممة له . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الحياء شعبةٌ من الايمان ﴾

﴿ الحياءُ نظامُ الإيمان ﴾

و«النظام» السلك الذي يُمْسِكُ ويَضُمُّ لآلىء العقدفالحياءُ يَضُمُّ اليه جميع أخلاق الإيمان وفضائله السامية وإذا زال زالت هذه الأخلاق والفضائل. كسلك العقد إذا انقطع تبدَّدَتْ اللآلىء ، وتناثرت في كل وجه . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الحياءُ والإيمانُ مقرونان : فاذا سُلب أحدُهما تبعه الآخر ﴾

﴿ قلةُ الحياءِ كفر ﴾

أي إنه يحمل صاحبه على ارتكاب مالا يرضي الله وما يوجب سَخطه . وهو كفر والمعنى أنه آية من آيات الكفر . وليس هذا فقط بل إن الشارع صلى الله عليه وآله وسلم جعل الحياء خُلُقَ دين الاسلام الخاص به فقال :

﴿ لكل دينٍ خُلُق وخُلُقُ الإسلام الحياء ﴾

ولا غَرْوَ فإن هذا الخلق هو الذي يحملُ الانسان على فعل أو ترك ما يريده الاسلام من الانسان في هذا العالم : فاذا استحكم هذا الخُلق في نفس الانسان صَدّه عن كلّ قبيح ، وقاده الى كل حسن . وعلى العكس إذا ضعف أثره واضمحل ، وحلَّتْ محله الوقاحة والسَّفَه سَهُلَ على صاحبه إذ ذاك ارتكابُ كل منكر . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إن مِمَّا أدْرَكَ الناسُ من كلامِ النبوَّةِ الأُولى : يا ابنَ آدمَ اذا لم تَستَحِ فاصْنَعْ ما شِئْت ﴾

أي ان هذه الوصية من بقايا ما أوصى به الأنبياء أممهم في سالف الأحقاب. وقوله « فاصنع ما شئت » ليس أمراً بارتكاب ما شاء من الرذائل وانما هو من أساليب بلاغة اللغة العربية : فهو يفيد أن المرء بعد فقده الحياء يَصْبح مأيوساً منه ، وجديراً بارتكاب كل رذيلة

ويُروى أن علقمة بن عُلاثة رضى الله عنه قال : عِظني يارسول الله . فقال

له ﴿ استحي من الله استحياءك من ذوي الهيبة من قومك ﴾

أي اترك ما يُسْخِطُ ربك عليك حياءً منه تعالى مثلما انك تستحي أن تفعل شيئاً قبيحاً في مجلس ضمَّ عظماء عشيرتك والموقّرين المحترمين من قومك ، وان الله خالقك أحق وأجدر بهذا الاحترام منهم . فالحياءُ من النـاس حسن ولـكن الأحسن منه بل الأنفع لك أن تستحي من الله الذي تعتقد أنه مطّلع عليك في جميع حالاتك وخلواتك ، اذ أن الحياءَ منه تعالى يأخذ بحُجْزتك عن فعل كل قبيح في كل وقت ، وفي كل مكان ، لا أمام النـاس فقط . ومثلُ الحياءِ من الله في النفع والفائدة استحياء الانسان من نفسه أي أن يكون لنفسه في نفسه قيمة وحرمة فيترك القبيح حيـاءً منها ، وفراراً من توبيخها ، كما يتركه حياءً من الناس ، وفرارا من تعييرهم. وإن لم يفعل سَجَّلَ على نفسه بنفسه الذلَّ والصَّغار مذ جعل نفسه في منزلةٍ أحطَّ وأسفل من منازل جميع الناس . والعاقل يَرْبَأُ بنفسه عن مثل هذا الموقف . وهذا ما عناه الشاعر بقوله :

(فَسِرِّي كإعلاني وهذي خليقتي وظلمةُ ليلي مثلُ ضوءِ نهاري)

ومن اللطائف ما حُكي أن اخوانا دَعوا رفيقاً لهم الى بعض مجالس لهوهم فلم يُجبهم وكتب اليهم « انى دخلتُ البارحة في الأربعين من عمري وأنا أستحي من سنّي » وكان أبو بكر رضي الله عنه يتمثل بهذا الشعر كثيرا :

(إني كأني أرى مَنْ لا حياءَ له ولا أمانة وسط القوم عُرْيانا)

أي أن الوقح الذي لا أمانة له على سر تحملهُ وقاحتهُ وقلةُ حيائه على معالنة كل شيءٍ والجرأة على ارتكاب كل قبيح على مرأى ومسمع من الناس فيعلمون من سرائره وخلائقه ما كان ينبغي أن يبقى مكتوما ، ويصبح فيهم كأنه عُريان مجرّد لا يواريه شيء . ومن الـكلمات المأثورة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا المعنى قوله «من كساه الحياء ثوبه ، لم ير الناس عيبه »

الامل و اليأس

علمت مما ذكرناه في بحث « الصبر والشجاعة » مالهما من الفضل والمزية والاثر البين في حياة البشر ونجاح مساعيهم أفراداً ومجتمعين . وقد بقي أنْ تعلم أن الصبر والشجاعة والثبات في الاعمال لايحييها في نفس المرء الا « الامل » ولا يُميتها إلا اليأس . كن آملاً فأنت شجاع صبور ثابت ، وكن يائسا فأنت جبان جزوع مضطرب . « الأمل » قَبَس من نور يمشي أمامك في مسارب هذه الحياة ، أما « اليأس » فسَدْفة من حلك الظلام تتكاثف أمام عينيك فتعمي عليك السبل ، وتسدُّ في وجهك أبواب النجاح . الامل روح العمل وكل عمل لايتخلّله أمل كان كالجسد الذي ليس فيه روح ، فسُرعان ماينحلّ ويدركه الفساد . فيكف لايكون « الأمل » إذن من اكبر الفضائل النَّفْسية ، وأعظم الواجبات الشخصية . وإن من طلب من نفسه الجَلَدَ والثبات في العظائم وحين اشتداد الاهوال والمصائب وهو يائس قانط كان كمن يزاول عملاً بيد مشلولةٍ . أو يرفع ثقلاً بعَتَلةٍ (مُخْل) غير مستندةٍ على نقطة ارتكاز .

ومن ثمَّ شدَّد القرآن الحكيم في النهي عن (اليأس) وجَعَلَهُ من سمات الجاحدين فقال تعالى :

﴿ ولا تَيْأَسُوا من رَوْح الله : إنَّه لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْح الله إلاَّ القَوْم الكَافِرون ﴾

والمراد من (رَوْح الله) رحمته وإحسانه ومعونته. وقال تعالى :

ومَنْ يقنَطُ مِن رَحْمَةِ ربه إلاّ الضالّون ؟ ﴾

﴿ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله ﴾

فاذا كان اليأس منهيًّا عنه أو محرَّمًا في الاسلام كان ضدّه وهو (الأمل)

مأموراً به ، ومعدوداً من كريم خصال الاسلام . وفي معنى الأمل « الثقةُ » و « الرَّجاءُ » و « التوكّل » ومع هذا فلا بدَّ من أن نشترط لهذه الكلمات الأربع شرطاً حتى يكون لمدلولها اعتبارٌ وقيمة في نظر الشرع والعقل ، ذلك أن يكون لك ـ وأنت «واثق» «راج» «آملٌ» «متوكّلٌ» ـ عملٌ أو سعى أو سوابق أو أسباب تستند اليها تلك الثقة ويبتني ذلك الأمل . والاَّ فان كنتَ مفرِّطاً مهملاً متقاعداً عن العمل والسعى ومراعاة سنن الله ونواميسهِ في خلقه وقلت عن نفسك إنك «واثق» «راجٍ» «متوكل» «آمل» كان هذا منك «تمنّياً» و «غروراً» و «خداع نفس» وهي صفات مذمومة في الشرع والعقل . قيل للحسن البصري : قوم يقولون « نرجو الله ويضيعون العمل » فقال « هيهات هيهات ! تلك أمانيُّهم يترجّحون فيها ، مَنْ رَجَا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً اجتنبه » وقوله (يترجّحون) أى كأنهم يتشبثون بأُرجوحة يتذبذبون فيها ، ويتمايلون يَمْنَةً ويَسْرَةً . فمحمود الأمل هو ماقارنه محمود العمل. قال تعالى :

﴿ المالُ والبَنونَ زِينَةُ الحياةِ الدُّنيا . والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربِّكَ ثَواباً وَخيرٌ أَملا ﴾

أي ان الأعمال الصالحة خيرُ ما يعتمدُ عليه الآمل في أمله وقال تعالى :

﴿ إنَّ الذينَ آمنوا والذينَ هاجَروا وجاهَدوا في سبيل الله أولئك يرْجُون رحمة الله ﴾

فانظر كيف ناط رجاءهم وهو أملهم بما سَبق لهم من الأعمال الصالحة . وفي هذا النوع من الأمل المحمود قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إن الأَمَلَ رَحمةٌ مِنَ اللهِ للأُمَّةِ : لَولا الأَمَلُ ما أرضعتْ أمٌّ ولَدَها ، ولا غَرَسَ غارسٌ شجرا ﴾

فقد قرن الأمل بسعي الامّ في الارضاع وسعي المزارع في الغرس . وقال بعض مشاهير الكتّاب المعاصرين « كم أنت أيها الأمل محبّب الى النفوس . أنت وحدك الذي تنقذ البشر من المحن والنكبات مهما تراكمت » وقال كاتب آخر « الحياةُ أن تعرف وتؤمّل وتحبّ وتعجب بكل ماهو جميل » وقال آخر « الحياةُ من غير أمل كالبيت من غير نافذة ، وهذا هو الاختناق بعينه » وقال بعض الحكماء : أعظم المصائب كلها انقطاع الرجاء . وقال الطغرائي :

(أعلّلُ النفسَ بالآمال أرقبها ما أضيق العيشَ لولا فُسْحَةُ الأمل)

وكلُّ هذا محمول على الأمل الشرعي المحمود . أمّا إذا تجرّدَ الأمل عن العمل ، وتجلبَبَ بالتواني والكسل ، فهو التمنّي المذمومُ . وقد جاء الاسلام وصريح القرآن بالنعي على أصحابه فِعْلهم وطريقتهم مذ قال تعالى :

﴿ ذَرْهُمْ يأكلوا ويَتمتّعوا ويُلهِهِمُ الأَملُ فسوْفَ يَعلمون ﴾

﴿ ولٰكنّكم فَتنتُمْ أنفُسَكم وتَرَبّصْتم وارْتبْتم وغرّتْكمُ الأماني حتى جاء أمرُ الله ﴾

﴿ يَعِدُهمْ ويُمنّيهِمْ وما يَعِدُهمُ الشيطانُ إلا غُروراً ﴾

ومحصّل القول أن الأمل المحمود هو انتظار أمر قد بذرت له البذور التي تُنبته ، ونُصبتْ من أجله الشباك التي تُمسكه وتثبته . إغرِس وآمُلِ الثمرة . تزوّج وآمُلِ الولد . اكتسب وآملْ الرزق ، أمّا إذا أمّلت فيها من دون غرسٍ ولا زواجٍ ولا كسبٍ كان فعلك باطلا ، وأملك كاذباً

واذا تعاطيت الاسباب كان من واجباتك حينئذٍ أن تقوي في نفسك الأمل في النجاح ولا تجعل لليأس سبيلاً اليها . وأكمل ضروب الامل وأوثقها أن تؤمل بالله تعالي الذي بيده الأمر كله . وهو الذي منحك القُوَى والمشاعر ، ويسّر لك الأسبابَ والوسائط ، وأقدرك على

اتخاذها ، وطُرق التوسل بها . وهناك أقوام يذهلون عن هذا الضرب الكامل من الأمل فلا يستشعرونه لحين التفكر في المستقبل . وانما يجعلون كل ثقتهم وأملهم في عزائمهم ، وقُوَى نفوسهم . أو في إحكام ما دبَّروه من الوسائل والأسباب وفي مُواتاة الأقدار والمصادفات . وهذه الثقة العمياء على قصورها ونقص كفايتها خيرٌ من اليأس والقنوط وتوقّع الخيبة والحرمان من وقت الى آخر

ومن أقبح ضُروب (اليأس) أن يتقاعد المرء فلا يتعاطى سبباً في جلب خير ، أو دفع ضرّ ، توهُّماً منه أن ذلك غير مُجْدٍ نفعاً ، ولا مُنجيه مما هو فيه . فيعيش كاسفَ البال حزينا . وليس هذا يأساً بل هو فى الحقيقة نوعٌ من الوسواس والخبَل إذا تغشّى فى الأمم ، واستحكم فى نفوسها حتى صرفها عن النظر فى مستقبلها والعناية بمصالحها كان من أقوى العوامل في تقويض بنيانها ، وتعفية آثارها وإدالة غيرها منها . أعاذنا الله منه ، ووقانا شرَّ عواقبه . وربما كان هذا النوع من اليأس هو الذي سمَّت الآيات السابقة أصحابه كافرين وضالّين . وليس عاراً على الإنسان أن تصيبه نائبة من نوائب الدهر وانما العار عليه أن يستسلم لليأس ويقنط حتى اذا سقط لم ينشط . واذا رقد لم ينهض . وقد أشار القرآنُ الى أن خلُق اليأس والجزع مما رُكّب فى فطرة البشر . لكنَّ الموفّق منهم مَنْ عالجه فعالجه بتربية نفسه وتقويم ما اعوج من أخلاقه . من ذلك قوله تعالى :

﴿ إن الإنسانَ خُلِقَ هلوعا اذا مَسَّه الشرُّ جزُوعا . واذا مسَّهُ الخيرُ منوعا ، إلا المصلّين ﴾

والمعنى ان الله تعالى خلَقَ الانسان ، وغرس في نفسه هذا الخلق الذى هو الهلع . فهو « اذا مسه الشرّ » ونزل به المكروه من فقر أو مرض أو خوف

كان « جزوعا » فيستولى عليه اليأسُ والقنوط ، ويحسب أن ما نزل به غير مُقلع عنه : فالفقرُ لا يعقبه غنى ، والمرض لا تخلفه صحّة ، والخوف لا ينسخه أمْن . وكثيراً ماقاده يأسه الى ارتكاب معصيـة أو منكر أو قتل نفسه أحياناً . « واذا مسه الخير » وتيسّرت له أسباب الرغد ، وغضارة العيش فأصبحَ غنيًّا ، موسعا عليه في الرزق . صحيح الجسم معافى ، موفورَ الكرامة ، نافذ الكلمة ، ذا جاهٍ ومنصبٍ كان اذ ذاك « منوعاً » يمنع الناس رفده وماله ومعونته والانتفاع بجاهه. ثم استثنى القرآن في تتمة هذه الآية أقواماً طبعوا نفوسهم بطابع التربية الصالحة. والقدوة الفاضلة ، فقوّوْا فيها عاطفة التدين ، وحبّ الخير والتزام الحقّ والعدل، فآمنوا وأحسنوا وعفُّوا ووفوا ، وعملوا الصالحات ، وكفُّوا عن السيئات حتى نالوا أرفع الدرجات

العمل والسعى

ليس بين الواجبـات الشخصية ما هو أعزم وأوكد من واجب السعي والعمل . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ان الله كَتَبَ عليكم السعيَ فاسعوا ﴾

ومعنى « كتب » عزم وأوجب وألزم . واذا كانت حياة الانسان الأدبية أو قيمته الأدبيـة متوقفة على واجب الصـدق فان حياته المادية أو قيمته المادية متوقفة على واجب السعي والعمل ، سواء فى ذلك الانسان باعتبار شخصه منفرداً أو فرداً عائشا في أمّة . وقد قال بعض كتاب الغرب « ليست الحياة يوم عيدٍ ولا يوم حداد ، وانما هى يوم عمل » وان عظمة الأمم انما تقاس بمقدار سعى أبنائها ، ومحصول أتعابهم . وكل أمة أنفتْ من الأعمال واستحلْت طعمَ الراحة والبطالة اسرع اليها الفناء والاضمحلال ، وخلفها غيرُها من الأمم

العاملة النشيطة : فالرومانيون مثلاً لم يبيدوا ويذهب سلطانهم الاّ حين احتقروا العمل وأخلدوا الى البطالة واللهو والترف ، حتى كانوا يرون أن الأعمال لاتليق الا بعبيدهم : وقد جعل الشرعُ الاسلامي حظَّ كلّ انسان في حياتيه ـ الدنيوية والاخروية ـ منوطاً بعمله ومتوقفا على مقدار سعيه لهما . فقال تعالى :

﴿ وأَنْ ليسَ للانسانِ الاّ ما سعى وأَنَّ سَعيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجزاهُ الجزاءَ الأوفى ﴾

أي ان حظه من المكافأة والنجح فى الدنيا والآخرة سيكون على قدر ما يبذله من العمل والسعى: خيراً اوشراً قليلاً او كثيراً . وجاء هذا المعنى أيضاً فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ انَّ اللهَ يُعطى العبدَ على قدر همتِه ونهمته ﴾

« همته » كدّه واجتهاده . و « نهمته » حرصه ورغبته

ومما ورد فى السُّنَّةِ من التنويه بشأن العمل أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان جالساً مع أصحابه ذات يومٍ فنظروا الى شابٍّ ذى جَلَدٍ وقوةٍ قد بكر يسعى فقالوا « وَيْحَ هذا لو كان شبابُهُ وجَلَده فى سبيل الله » أى فى الطاعات البدنية من صلاةٍ وصيام وجهاد . فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لاتقولوا هذا : فإنَّه إنْ كانَ خَرَجَ يَسْعَى على ولَدِه صِغَاراً فهو في سَبيلِ الله ، وإنْ كانَ خَرَجَ يَسْعَى على أبَوَيْنِ شيخينِ كبيرينِ فهو في سبيل الله ، وإنْ كان خرج يسعى على نفسِه ليُعِفَّها فهو في سبيل الله ، وإنْ كان خرج يسعى رِياءً ومُفَاخرةً فهو سبيل الشيطان ﴾

وسبيلُ الله كما يُفهم من هذا الحديث كلُّ طريق يسلكه الانسان في تحصيل مابه خيرهُ وسعادته وهناؤُه ، بشرط أن يكون سعيه مرتكزاً على نيّة

صالحة ، وقصد كريم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم ـ في التحذير من البطالة وسوء نتائجها ـ :

﴿ البَطالةُ تُقَسّي القلبَ ﴾

﴿ إذا قصّر العَبْدُ في العملِ ابْتلاهُ اللهُ بالهَمّ ﴾

لاجرم أن الهموم والاكدار والأماني الباطلة وقسوة القلب وجرأته في ارتكاب المحرمات والآثام والعدوان على الغير ـ كل ذلك إنما يكون من ذوي البطالة والفراغ والعطلة عن العمل . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أخْشَى ماخشيتُ على أمّتي كِبَرُ البَطن ، ومُداومَةُ النَّوْمِ والكَسَل ﴾

« كِبَرُ البطن » كنايةٌ عن انتفاخه وامتلائه بالطعام مما يكون مجلبة للكسل ، والعجز عن متابعة العمل . فالشارع عاب الكسل عن العمل وما يؤدي اليه من الافراط في النوم والأكل .

﴿ سافروا تَصِحّوا وتَغْنَموا ﴾

يعني أن الغنم والربح والمنافع الدنيوية اذا كانت تتوقف على السفر والضرب في البلاد فسافروا لأجل الحصول عليها ، فانكم إذا فعلتم تنالون ما تريدون منها ، وتستفيدون فوق ذلك صحة وقوة جسم . ولا تكسلوا فتلزموا بلدكم مفضّلين الراحة والبطالة والإعدام . فان هذا ليس من دأب ولا أدب أهل الاسلام

﴿ إعْمَلوا فكلٌّ مُيَسّرٌ لما خُلِقَ له ﴾

يشبه أن يكون أراد صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الردّ على الكسالى المتقاعدين عن العمل . المتعلّلين بان الله تعالى يُيسّر لكل إنسانٍ من حظوظ الدنيا وخيراتها ما كان سبق وقدّره له في لوح علمه وتقديراته : فهو ينهاهم عن هذه الفكرة الممقوته المنافية لصحيح تعاليم الاسلام . ويقول لهم : أنتم اسلكوا

الطرق الموصّلة عادةً الى خيرات الدنيا والآخرة ، والله تعالى يُيسّر لكل منكم ماقضاه وقدره له . يعنى أن ماقضاه وقدره لكم هو غيب عنكم ، أما أسباب ذلك فظاهرة مبسوطة بين أيديكم ، فلماذا تعرضون عن هذه الاسباب الظاهرة القريبة من متناول هممكم ، وتشغلون أنفسكم بقدر الله الغائبِ عن متناول حواسّكم . وما أحسن ماقاله الامام جعفر الصادق من أئمة آل البيت رضى الله عنهم في هذا المعنى « إن الله أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً : فما أراده بنا (وهو القدر) طواه عنّا ، وما أراده منا (وهو العمل) أظهره لنا . فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عمّا أراده منا »

وبالجملة فإن أعدى أعداء العمل التوكّل الكاذب المقرون بالاهمال والتقاعد وترك السعى . وأقوى أنصار العمل وأشد أركانه التوكل الصحيح الشرعي المقرون بالسعى والحركة والنشاط ، واتخاذ الاسباب الظاهرة التى أمرنا الله ونبيه صلى الله عليه وسلم بمراعاتها ، والسير على سَنَنها . ويوضح ذلك ما كان من إرشاده صلى الله عليه وسلم لذلك الأعرابي الذي أراد أن يسرّح ناقته فلا يعقلها ولا يوثقها اتكالا على الله مذ سمع ما للمتوكلين من الفضل . فقال له صلى الله عليه وآله وسلم مفسّراً معنى هذا الاتكال بأوجز عبارة وألطف إشارة:

﴿ اعْقِلْ وَتَوَكَّلْ ﴾

أي اجمع بين الأمرين : بين اتخاذ السبب ، وبين الاتكال عليه تعالى فى أن يجعل ذلك السبب مؤديا الى حفظ الناقة : فلا يعْمَدُ اليها لصٌّ يسرِقها أو غلام عارمٌ يحلُّ وثاقها ويُطلقها .

هذا هو التوكل الشرعي الصحيح : أن توجدَ أيها العامل عملك باتخاذ أسبابه . ثم تنفخ فيه روح التوكل على الله فلا تقنط من توفيقه ، وكريم عنايته ، وخفيّ لطفه . فاذا فعلت هذا شعرت إذ ذاك يبرد الامل في قلبك ، ولذة العمل

في نفسك . أما التوكل من دون عمل ، والعمل من دون توكل فكلاهما ناقص التركيب ، ليس له من الفائدة والقيمة الشرعية أدنى نصيب .

وللأعمال والمساعي شروط وآداب : منها المحافظة على الوقت واعتباره رأس مال عظيم : فلا ينبغي أن يضيع منه جزء من دون عمل يُمْلأُ به . وان الوقت بالنسبة الى العمل كالارض بالنسبة إلى الزرع : فكما يجب عليك أن تحافظ على تملك أرضك لأجل بذر زرعك الذي هو مادة معيشتك كذلك يجب عليك أن تحافظ على وقتك من أجل ممارسة عملك الذى هو مادة حياتك . وقد نوّه القرآن بالوقت : وأشار الى قيمته مذ أقسم تعالى فقال :

﴿ والعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ . إِلاَّ الذّينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

جعَلَ كل البشر في خسران . ثم استثنى منهم المؤمنين الذين يعملون الخير . ولما كان العمل لا يمكن أن يقوم بنفسه من دون وقت يقع فيه أقسم بالوقت فقال (والعصر) منبّهاً الى وجوب مراعاته والاحتفاظ به . وكلمة (العصر) في أصل معناها اللغوي مطلق الوقت ، ثم شاعت في أحد معانيها وهو الوقت المتوسط بين الظهيرة والغروب .

ومن شروط العمل أيضاً الثباتُ عليه من دون مَلَل ولا ضجر . وإن عملا قليلاً دائماً ترافقه الهمة والنشاط خيرٌ من عمل كثير يؤدّي الملل منه إلى تركه والانقطاع عنه بتاتاً . وهذا ما أراده صلى الله عليه وآله وسلم في قوله :

﴿ أَحَبُّ الأَعمَالِ إِلىٰ اللهِ أَدْوَمُهَا وإِنْ قَل ﴾

ليست العبرة بالكثرة في العمل الذي يعقبه تراخٍ وكسل وإنما العبرة في المثابرة عليه ، وإن كان قليلا ، حتى يبلغ العامل الغاية منه .

ومن شروط العمل اختيار الاعمال النافعة ذات القيمة والأثر الحسن في مصالح الانسان الشخصية والاجتماعية . أما السعى والجدّ في أعمال عقيمة لاتفيد ولا تنفع أحداً فهو من الجهل أو الحمق . كما يحكى أن أحد الملوك الاقدمين كلف نقاشاً ماهراً أن ينقش صورته في الجليد ففعل بعد كد وتعب ، ثم مالبث أن ماع الجليد وغابت الصورة . وهكذا أعمالنا التى لانراعى فيها المصلحة الثابتة : لاتلبث أن تضمحلّ وتزول آثارها ، لكن قد يبقى علينا عارها .

بقيت مسألة شديدة التعلق بموضوعنا هذا : وهى أنه إذا كان للانسان من الرزق أو الارث مايكفيه مؤونة العمل والسعى جملةً واحدةً أو يحتاج اليه في وقت دون وقت : فبعض الأقدمين من علمائنا يرى أنه ليس من واجبات هذين الشخصين العمل والسعىُ فى كل وقت أو في بعضه ماداما غير محتاجين اليه. فالأول يبقى في البطالة طولَ أيام حياته والثاني معظمها . لكنّ هذا القول إن كان يلائم حالتهم الاجتماعية في ذلك العهد فان الحال اختلفت في زماننا . وأصبح العمل والسعى واجباً شخصياً أو اجتماعياً على كل فرد من أبناء مجتمعنا . حتى إذا كان الشخص نفسهُ مستغنياً عن الفضل والزيادة الناتجة عن عمله وسعيه فان الوطن ومجموع الأمة غير مستغنين عن ذلك . وكل وطنى مَدينٌ لوطنه وأمته بوجوده وحياته وأمْنِه على نفسه وأملاكه وكرامته . ومن جهة ثانية فان عظمة كل أمة وارتقاءها وثبات قدمها في هذا المعترك الهائل وسبقها ولو أشواطا في هذا الميدان ـ الذي تتسابق فيه أمم العالم ـ كل ذلك يتوقف على عمل كل فرد من أفراد تلك الأمة ومبلغ سعيهم في إيجاد المشاريع العمرانية والاقتصادية . فقوة الأمة إنما تنتج عن شدة تعبها في أعمال حياتها ، والقيام بواجباتها . كما أنّ قوة الأسد الجسمية ما نتجت إلا عن شدّه تعبه في تحصيل قُوتِهِ وضرورات معيشته

(وما غاظتْ رقابُ الأسْد حتى بأنفسها تولّتْ ما عناها)

ومُحصّلُ القول ان العمل ركنٌ من أركان سعادة الفرد والجماعة وأنه ينبغي للمُرَبّين والمعلّمين أن يقولوا للصغار : إن الطريق المفروش بالأزهار ، لا يوصل الى المجد والعزّ والفخار . وان نجاحكم ونجاح وطنكم منوطان بعمل كل واحد منكم ومتوقف على مقدار ما يبذله من الحركة والسعي والنشاط ، وانه ليس من الانصاف ولا العدل أن يعيش الانسان على حساب غيره من بنى وطنه فيتمتع بخيرات الوطن الناتجة عن تعب أبنائه ومجهوداتهم المختلفة ثم لا يشاركهم في عمل ما هو واجب عليه من هذا القبيل ليستفيدوا منه كما استفاد هو منهم بالمقابلة. وقد أوعد الشارع هذا العاطل الكسلان أشد وعيد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ المَكفِيُّ الفارغ ﴾

ويعنى « بالمكفيّ » الذي يكفيه غيرُه ضرورات حياته ، و« بالفارغ » العاطلَ عن العمل ، المُخْلد الى البطالة والكسل . ومما يحسن إيراده في ختام هذا الباب ما جاء في كتاب (كشف الغمة) عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال جُعْتُ يوماً فخرجتُ أطلب العمل في عوالى المدينة فاذا أنا بامرأةٍ قد جمعت مَدَراً تريد بَلّه فقاطعتُها : كل ذَنوب[1] على تمرة فملأتُ ستة عشر ذَنوباً حتى مجلَتْ[2] يداىَ ثم أتيتها فقلت بكفيّ هكذا بين يديها (يعنى انه بسطهما لها لترى مَجلَهما فتوفيه أجرته) فعدّت لى ستّ عشرة تمرة فأتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرتُه فأكلَ معى منها

(١) الذنوب بفتح الذال الدلو (٢) أي صلبت فظهر فيها ندوب من متابعة العمل

الزراعة والصناعة

هما أيضا من جملة طرق العمل والسعى كالكسب والتجارة . بل هما الأصل الذي بنى عليه نظام معيشة الانسان منذ يوم استقل انسانا مدنيا على وجه الارض . ويدل على هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أفضلُ الكَسْبِ الزراعةُ ، فانّها صنعةُ أبيكم آدم ﴾

والإنسان بعد ان مارس الزراعة تحصيلاً لقوته زمناً طويلا عاد فاشتغل في تحصيل ضرورات حياته الاخرى كالكساء والإناء والبناء من طريق الصناعة على أبسط حالاتها ، حتى إذا ارتقى في الصناعة والزراعة بعض الارتقاء ، وتكاثرت محصولاتهما بين يديه ، انتبه الى لزوم نقلها والمقايضة بها . فنشأت التجارة ، ثم نشأت الامارة للحماية والدفاع عن الحوزة . وعلى هذه الآساس تكوّنت الجماعات ، وقامت المدنيّات . حتى بلغت حالاتها الحاضرة ، ولا يعلم إلا الله كيف يكون مصيرها ، والى أي حدّ ينتهى كمالها . ولما كان من دأب الشرائع السماوية العنايةُ بسواد البشر وعامتهم ، وتهيئة أسباب السعادة والراحة لهم ؛ وكانت الزراعة والصناعة المورديْن الأغزرين لتوفير ثروتهم ، وتحصيل موادّ معيشتهم ـ نوّه الشرعُ الاسلامي بشأن هذين الموردين وحضّ على ممارستهما ، في غير ما نصٍ من نصوصه . وقد كان معظم عمل الصحابة من أهل المدينة الزراعة والشغل في الحقول والبساتين كما كان معظم عمل الصحابة من أهل مكة التجارة والرحلة الى الأقطار من أجلها . وما كانوا رضي الله عنهم يأنفون من عمل ، ولا يزهدون في صناعةٍ مهما كان أمرها : فكان أبو بكر بزّازا ، وكان عمر سمساراً ، وعمرو بن العاص جزاراً . وهكذا غيرهم . ومما ورد في القرآن من التنويه بالزراعة قوله تعالى :

﴿ والأَرْضَ فَرَشناها فنِعْمَ الماهِدُون ﴾

« فرشناها » أي بسطناها ومهدناها بين أيديكم ليسهل عليكم العمل فيها ، والانتفاع بثمراتها وخيراتها

﴿ وفَجَّرْنا فيها مِنَ العيون لِيأْكُلوا مِنْ ثَمَرِه ﴾

أي انه تعالى انما أجرى العيون والينابيع في الأرض لنسقي بها الأراضي الزراعية ، ثم نجني من ثمراتها ، وننتفع بغلاتها . وقد ذكر الله ذلك في صدد الامتنان على البشر ، وتذكيرهم بالنعمة . وشكرُ النعمة إنما يكون بالانتفاع بها ، لا باهمالها على مرأى من المنعم . وإن شكر نعمة الأرض التي فرشها الخالق تحت أرجلنا ، وأجرى في جنباتها العيون القريبة من متناول أيدينا ، إنما يكون بالحرث والزرع والسقي والاستغلال . بهذا كله نكون شاكرين للربّ تعالى ، معترفين بفضله وسابغ نعمته . ومن الأحاديث الشريفة في ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ احْرُثوا : فإنَّ الحَرْثَ مُبارَك ﴾

﴿ مامِنْ مُسْلِم يَزْرَعُ زَرْعًا أوْ يَغْرِسُ غَرْسًا فيأْكل منه طيْرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صَدَقة ﴾

﴿ مامِنْ رَجُلٍ يَغْرِس غرسا إلا كتَبَ اللهُ له مِنَ الأجْرِ قَدْرَ ما يَخْرُجُ مِنْ ثَمَرِ ذلكَ الغرْس ﴾

﴿ ما مِن آمْرِيءٍ يُحْيِي أرْضًا فيشرَبَ منها ذُو كبِدٍ حَرَّى ، أو تصيب منه عافيةٌ الا كَتَبَ الله له بها أجراً ﴾

و(العافيةُ) هنا كل طالب رزق من انسان أو بهيمة أو طائر . فالشارع يقول للزارع : ان لك من وراء منفعتك الخاصة الحاصلة من احياء الأرض منفعة أخرى عامة خفية عنك وهي الأجر والثواب على ما تتناوله الطيورُ والدوابّ

من ماء أرضك وثمارها . وان كنت أنت أحيانا تكره ذلك ولا تريده ، على حدّ ما ورد في الأثر: يؤجر المرء رغماً عن أنفه. وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ أحْيا أرْضاً مَيتةً ثِقةً باللهِ واحتساباً كانَ حقاً على اللهِ أن يُعينَه وأن يُباركَ له ﴾

﴿ ان قامتِ الساعةُ وفي يدِ أحدِكم فَسيلَةٌ فإنِ استَطاعَ أنْ لا يقومَ حتى يَغرسَها فليَغْرِسْها ﴾

و (الفسيلةُ) شُجَيرَةٌ تنقلُ من منبتها الأصلي لتزرع في الأرض المهيّأة لها . وفي هذه الأحاديث حض على نقْبِ الأرض ، وغرس الأشجار ، وبذل الجهد في ذلك من دون تراخ ولا اهمال حتى ولو قامت القيامة . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اطلبوا الرزْق في خبايا الارض ﴾ يعني من طريق الفلاحة والزراعة فان بهما استخراج كنوز الأرض . وقد يدخل في طلب الخبايا استخراج المعادن المختلفة والانتفاع بها بالطرق المتعددة . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ النَّخلُ والشَّجَرُ بَرَكةٌ على أهله وعلى عَقبهم ﴾

ذَكَرَ النخل أولا لأنه الاصل في ارتزاق المخاطبين . وقوله « بركة » أي نفع وخير لهم ولأولادهم من بعدهم .

﴿ مِنَ الله لا مِنْ رَسُولِهِ : لُعنَ قاطِعُ السِّدْر ﴾

قوله « من الله لا من رسوله » اي ان هذا الزجر عن قطع السِّدر من امر الله لا من امره صلى الله عليه وآله وسلم . والسِّدر شجر في الحجاز له ظل وورق وثمر يسمى النبْق . وفي قطعه واتلافه مضرّة عظيمة للناس الذين يستظلّون به ويأكلون من ثمره وينتفعون بورقه وأغصانه . وان قوانين أهل المدنية اليوم تعاقب أشد العقاب من يسطو على الأشجار فيتلفها أو يفسدها من دون سبب .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اتَّخِذُوا الغَنَمَ فإنها بَرَكة ﴾

ولا يخفى ان تربية المواشي والدواجن أصبحت اليوم فرعاً من فروع الزراعة ، وعليه يتوقف موردٌ عظيم من مواردها

أما ماوَرَدَ بشأن الصناعات والحرف والتنْويه بأربابها فكثير أيضا ، من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الحِرْفَةُ أمانٌ مِن الفَقْرِ ﴾

﴿ إنّ اللهَ يُحِبُّ المؤمنَ المُحْترِف ﴾

﴿ أطيبُ الكَسْبِ عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِه ﴾

« عمل الرجل بيده » كناية عن ممارسة الصناعات اليدوية فإنّ كسبها من أطيب الكسب

«وليس على عبد تقي نقيصةٌ إذاصحّ التقوى وان حاك أو حجم »

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ أمْسَى كالاً مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ أمْسَى مَغْفوراً له ﴾

« كالاً » أي تَعِبًا من طول ماعالج من شغل يده في نهاره حتى أمْسَى

وقد خصّ صلى الله عليه وآله وسلم بعض هؤلاء الصناع بالذكر فقال :

﴿ أكْرِموا الخيّاطِينَ والحَطّاطِين : فإنهما يأكُلان من أعْماق عُيونِهما ﴾

ومعنى أكرموهم أعطوهم حقهم كَلاً وافياً من دون بَخْسٍ ولا نقص . أو ان المراد لاتحتقروهم . ثمّ علّل ذلك بأن صنْعتهم مُنصبة متعبة تحتاج الى صبر وتحديق واجهاد بَصَر ، في تبيّن مواقع الأقلام ومغارز الإبر . ولا جَرَم أن

التحديق اذا استمر طويلا أتعب العينَ وعرّضها أحياناً كثيرة للعطب : ولعمري ان مرتبي الحروف في المطابع جديرون أن يدخلوا في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « الخياطين والخطاطين » وان تشملهم الوصيةُ النبوية في إكرامهم وتوفير حقوقهم .

الكسب والتجارة

هذا الواجب شعبةٌ من شُعَب واجب « العمل والسعي » . فالكسب تحصيلُ المال من أيّ طريق كان . والتجارةُ تحصيل المال من طريق تقليب البضائع والسلع بيعاً وشراءً . أو هي شراءُ الشيء بأرخص مايمكن من الثمن ثم بيعه بأغلا ما يمكنُ منه

واشتغالُ فريق من أبناء الأمة في هذا النوع من العمل واجبٌ شخصيٌّ عليهم ، مادام أمر معاشهم متوقفاً عليه بحيْث يستغنون به عن التسوّل واحتياج الناس . فمهما كان في طلب المعاش والكدّ في تحصيل الرزق تعَب ومشقّة ، فإن التعرّض لصدقات الناس وانتظار صِلاتهم أشقّ على النفس وأصعب . وجاء في الحديث الشريف :

﴿ لَأَنْ يأْخُذَ أحَدُكم حَبْلاً ثمَّ يَغْدو إلى الجَبَلِ فيَحْتَطِبُ فَيبيعُ فيأكُلُ ويَتصدّقُ خَيرٌ له من أنْ يسألَ الناس ﴾

ولم يكتف الشرع بهذا بل جعَل طلبَ الرزق الحلال تعففا عما في أيدي الناس فرضاً دينياً ، فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم :

﴿ طَلَبُ الحَلالِ واجبٌ على كلّ مُسْلِم ﴾

والفرض والوجوب بمعنىً واحد في أصل الاستعمال الشرعي ، ثم فرق

الفقهاء بينهما . وأثنى الصحابة رضى الله عنهم ذات يوم على رجل فقالوا : يارسول الله إن فلانا يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويكثر الذكر . فقال « أيكم يكفيه طعامه وشرابه ؟ » قالوا : كلنا يارسول الله ، فقال :

﴿ كلكم خير منه ﴾

فهذا يدل على أن الانقطاع للعبادة اذا كان يشوبه شيء من الضيق والحاجة الى الناس لايكون فضيلة دينية مالم يعضدها فضيلة كسب المال ، والاستغناء به عما فى أيدى الناس . وهكذا كان دأب الصحابة والسلف رضى الله عنهم : فهم يعتبرون الكسب وطلب الحلال من المال من واجبات المرء الشخصية التى لامندوحة عنها . ناهيك أن أبا بكر رضى الله عنه سعى يوم بويع بالخلافة الى السوق طلباً للكسب حسب عادته ، ولم ير الخلافة بالتى تمنعه عن السعي حتى عارضه الصحابة في ذلك خشية أن تشغله أمور تجارته عن القيام بأعباء الخلافة ، وفرضوا له كفايته من بيت المال . وقال عمر رضى الله عنه : إني لأرى الشاب فيعجبنى فأسأل: هل له من كسب ؟ فيقال لا . فيسقط من عينى . وكان لأبى الأسود الدؤلى ابن يقال له أبو حرب ، فلزم منزل أبيه في البصرة لاينتجع أرضاً ، ولا يطلب رزقا . فعاتبه أبوه في ذلك فقال : « إن كان لى رزق فسيأتيني » فقال أبو الاسود:

(وما طلب المعيشة في التمني ولكن ألق دلوك في الدلاء)

(تجيء بملئها طوراً ، وطوراً تجيء بحمأة وقليل ماء)

لاحظ أبو الأسود ان ابنه إنما يخدع نفسه بالتوكل الكاذب المنهى عنه في الشرع فأرشده فى هذين البيتين الى حقيقة التوكل وان المعيشة لاتكون بالتمنى والتعلل بالقدر ، وإنما تكون بإلقاء الدلو بين الدلاء . وهو كناية عن الدخول فى غمار التجار ومشاركتهم فى أعمالهم : فطوراً يكسب المرء كثيراً ، وطوراً

قليلا . ثم اته بالصبر والثبات وحسن المعاملة والمهارة فى الاحتيال على الكسب ينال منه بتوفيق الله ما أحب

وروى الامام أحمد في مسنده قال : كانت للمقدام بن معدى كرب الصحابي جارية تبيع اللبن ويقبض هو ثمنه . فقيل له : سبحان الله !! أتبيع اللبن وتقبض الثمن ؟ فقال : نعم وما بأسٌ في ذلك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

﴿ لَيَأْتِيَنَّ على الناسِ زَمانٌ لا ينفَعُ فيه إلا الدِّرْهَمُ والدِّينارُ ﴾

عابوه رضى الله عنه بما كان منه من هذا الكسب ، فأجابهم بانه لاضرر في ذلك مادام المال شيئًا لابد منه للانسان ، لاسيما فى آخر الزمان الذي تتغير فيه حالة الاجتماع وتتنوع أساليب المعيشة وتتعدد تكاليف الحياة . قال رضي الله عنه هذا القول في صدر الأسلام وسماه آخر الزمان . وقد كان العمران الاسلامي إذ ذاك في طور التكون والنشوء ، فكيف لو رأى زماننا هذا وتفنن أهله في أساليب كسبهم وطُرُق معايشهم . لاجَرَم أن ميدان العمل للكسب أصبح اليومَ أرْحَب ، وطلبُ المال والتّجمل به بين الناس صار أوكد وأوجب .

وقال الإمام الشافعي رضى الله عنه ليونس بن عبد الأعلى « والله ما أقول لك إلا نصحًا : إنه ليس الى السلامة من الناس سبيل : فانظر ماذا يصلحك فافعله »

وحكى مقاتل أن ابراهيم الخليل صلوات الله عليه قال « يارب حتى متى أتردد في طلب الدنيا ؟ » فقيل له : « أمسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا » يعنى ليس هو من طلبها المذموم

ولما نسخ القرآن وجوب قيام الليل على الصحابة ذكر لذلك أسبابا ، ومن تلك الأسباب المشاقّ التى يقاسيها التجار في أسفارهم ، وقد قرنهم بالذكر مع

المجاهدين المدافعين عن الحوزة ، فقال تعالى :

﴿ وآخَرونَ يَضْرِبونَ في الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ الله ، وآخَرونَ يُقاتِلونَ في سَبيلِ الله ﴾

اي ان منكم معشر الأمة من يتنقل في البلاد للتجارة ومنكم من يحارب من أجل الدفاع عن الحق ، وتكليفكم قيامَ الليل مع نُشوء هذه الطوائف في هيئة اجتماعكم أصبح شاقاً عليكم غيرَ داخل تحت طاقتكم ووسعكم ، فاقتضت العناية الآلهية تخفيف ذلك عنكم . وقد قدّم الوحيُ فريق التجار في الذكر على فريق المحاربين : لأن التجار كثيراً ما كانوا طلائع للمحاربين ينسلون أولا الى البلاد الأجنبية بقصد التجارة فيها وبذلك يُمهّدون السبيلَ أمامَ الغازين الفاتحين . وقد عهدنا مثل ذلك في تاريخ الفتح الاسلامي في قارة افريقيا وأقصى الشرق، كما عهد مثله في تاريخ الاستعمار الأوروبي في سائر القارات منذ أربعمائة سنة الى اليوم

أما السنّة الشريفة فقد جاء فيها أحاديث كثيرة تحضّ على التجارة وكسب المال الحلال من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنَّ أطْيَبَ الكَسْبِ كَسْبُ التّجارِ الذينَ إذا حَدَّثوا لَمْ يَكْذِبوا ، وإذا أُئْتُمِنُوا لم يَخونوا ، وإذا وَعَدُوا لم يُخْلِفُوا . وإذا اشْتَرَوا لم يَذُمّوا ، وإذا باعُوا لم يُطْرُوا . وإذا كان عليهم لم يَمْطُلوا ، وإذا كان لهم لم يُعَسّروا ﴾

مَدَحَ صلى الله عليه وآله وسلم التجار وشَرَط أن يكونوا متصفين بما ذكر من الصفات . وقوله « اذا حدثوا » أي بشأن أشغالهم ومتاجرهم إذ كثيراً ما أدخلوا الغش على الآخرين بمثل هذه الأكاذيب فورطوهم معهم فى معاملات كانت عاقبتها الخسار والافلاس . وقوله « وإذا اشتروا لم يذمّوا » أي البضاعة التى اشتروها إظهاراً لتفضلهم على البائعين في شراء تلك البضاعة . وقوله « وإذا

باعوا لم يُطْروا » أي لم يبالغوا في مدح بضاعتهم التى يريدون بيعها غشًّا وتغريراً. وقوله « وإذا كان عليهم » أي حق للآخرين « وإذا كان لهم » أي حق عند الآخرين « لم يُعسّروا » أي لم يُلِحُّوا في طلب حقهم بحيث يُدخلون عليهم العسر والضيق بل يمهلونهم ويحسنون تقاضيهم. وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً :

﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يَرى عَبْدَهُ تَعِبًا في طَلَبِ الحَلالِ ﴾

﴿ مَنْ باتَ كالاًّ من طَلَبِ الحَلالِ باتَ مَغْفُوراً له ﴾

ومعنى (كالاًّ) تعباً خائر القوة

﴿ إنَّ مِنَ الذّنُوبِ ذُنوباً لا تُكَفّرها الصّلاةُ ولا الصّيامُ ولا الحَجُّ : تُكَفّرها الهُمُومُ في طَلَبِ المَعِيشَةِ ﴾

و « الهموم » جمع همّ يحتمل أن يُراد به الغم والكدر كما هو الأشهر في استعماله اليوم ، أو يراد به معناه الآخر وهو الجدّ والاهتمام بالأمر والعزم عليه . ومنه الحديث الشريف :

﴿ كُلُّكُمْ حارِثٌ ، وكُلُّكُمْ هَمّامٌ ﴾

« حارث » أي كاسب للمال ، و « همام » أي يجدُّ في مصالحه ويهتم بطلبها

﴿ العِبادةُ عَشْرَةُ أجْزاء ، تِسْعَةٌ منها في طَلَبِ الحَلال ﴾

﴿ العافِيَةُ عَشْرَةُ أجْزاء : تِسْعَةٌ في طَلَبِ المعيشَةِ وجُزْءٌ في سائر الاشياء ﴾

والمراد بالعافية هنا أن يكون المرء في معافاةٍ من الناس ومتاركةٍ : لاهمْ يُقْلقون راحته بطلب حق منه أو ثأر ، ولا هو يقلق راحتهم بشيء من ذلك . ولا جرم أن من كان مشتغلا بتحصيل الرزق ألهاهُ ذلك عن الفضول وفعل ما يضر الناس . وهم بالمقابلة لايضرونه . ومعظمُ متاعب الشخص إنما ينشأ عن بطالته : فإن البطالة والاعراض عن الكسب يمهد السبيل الى النزاع والخصام

مع الناس . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الكاسبُ حبيبُ الله ﴾

﴿ أفضلُ الأعمالِ الكَسْبُ الحلال ﴾

﴿ طلبُ الحلالِ جهاد ﴾

﴿ نِعْمَ المالُ الصالح للرَّجُل الصالح ﴾

﴿ مَنْ طَلَبَ الدُّنيا حلالاً استِعفافاً عَنِ المسئَلَة ، وسَعيا علَى عياله ، وتَعَطُّفاً على جاره ، لَقِيَ اللهَ ووَجهُهُ كالقَمَرِ ليلةَ البدْر ﴾

يذكر في هذا الحديث شيئاً من آداب الكسب وشرائطه : منها (حسنُ النية) فلا يقصد في جمع المال التباهي على الغير ، أو التوصّل به الى ارتكاب مالا يحلّ ، وانما يقصد صيانة كرامة النفس عن سوآل الناس ، والتوسعة على عائلته ، فيعيشون في خفضٍ وراحة بال . ثم يهتم بعد عائلته بأمر المُعوزين من سائر الخلق . وخصّ الجار بالذكر لأن العناية به أوكد من المعوزين الآخرين والا فغيرُ الجار كالجار في وجوب مواساتهم ومدّ يد المعونة اليهم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا صلَّيتُمُ الفجرَ فلا تَناموا عن طَلَبِ أرْزاقِكم ﴾

﴿ باكروا في طلَبِ الرزقِ والحوائج ، فانَّ الغُدُوَّ بَرَكةٌ ونجاح ﴾

هذه الأحاديث في بيان أدب آخر من آداب الكسب ، وهو المبادرة اليه منذ الصباح : اذ يكون الجسم أنشط ، والنفس أطيب ، وحال الهواء ملائماً ، والجَلَب متراكماً . فيختار منه ما يناسبه ، ويظفر بحاجته من أطايبه . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أجْمِلُوا في الطَّلَبِ : فإنَّ كلاً مُيَسَّرٌ لما كُتِبَ له ﴾

﴿ أيُّها الناسُ ، اتَّقوا اللهَ وأَجْمِلوا فى الطلبِ : فان نفْساً لن تموتَ حتى تَستوْفِيَ رزْقها وإنْ أبطأَ عنها . فاتَّقوا اللهَ وأَجْمِلُوا فى الطلب ، خُذوا ما حَلَّ ودَعُوا ما حَرُم ﴾

وهذا من آداب الكسب أيضاً وهو الاجمال والتأني وترك الحرص الشديد والنهم المفرط الذي يؤدي بالكاسب تارةً الى الحرام من المال ، وطوراً الى الحسد وكره منافسيه فى التجارة مذيراهم أحسنَ حالاً ، وأوفر مالاً منه . وربما أدّاهُ حرصه وحسده الى الهمّ والغمّ أو الى المرض واعتلال الجسم . والشارعُ إن كان يمدح الهِمّة والنهْمة فى طلب الرزق أحيـانًا فانما يراعى فى خطابه هذا حالة بعض الكسالى المتقاعدين عن الكسب اتكالا على الاقدار ، ومصادفات الليل والنهار ، فهو يُرشدهم الى وجوب السعى ، وأن رزقَ كل إنْسانٍ على مقدار سعيه ونهمته وهمّته كما جاء فى بعض الأحاديث . أما فى هذا الحديث الذي يتضمّن الأمر بالاجمال فيخاطب من أفرط فى الحرص وجمع المال الى حدّ أن يلوّثَ ذمّته أو يُفسد صحته ، أو يقوده حسده لمنافسيه فى التجارة الى مباداتهم بالشرّ ، ومصارحتهم العداوة . فلمثل هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اتَّقِ اللهَ وأَجْمِلْ فى الطلب ﴾

﴿ لنْ تموتَ نفسٌ حتى تستوفىَ رزقَها ﴾

وأمثال ذلك مما يسكّن نفس المفرط فى الحرص ويقلّل من أطماعه . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الجالِبُ مَرْزُوق ، والمُحتَكِرُ مَلعون ﴾

﴿ بِئْسَ العبدُ المُحتكِر : إنْ أَرْخصَ اللهُ الأسعارَ حزِن ، وإنْ أغلاها فَرِح ﴾

« الجالب » الذى يجلب البضائع الى بلده من البلاد الأخرى فيسهّل على الناس

أسباب المعيشة بإكثار موادّها بين أيديهم . وضدّه المحتكر الذي تكون لديه السِلعُ ومواد المعيشة متوفّرة فيحجزها عن الناس رجاء ارتفاع أسعارها ثم يبيعها عليهم وفيهم الفقير وذو الحاجة . فالاحتكار ليس من الأخلاق الاسلامية ، ولا الآداب الاجتماعية . وقد مقته الشارع أشدّ مقت كما سمعتَ . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ليسَ مِنَ المرُوَّة الربْحُ على الإخوان ﴾

أي ليس من الفضائل الانسانية أن يأخذ البائع ربحاً كثيراً من إخوانه في البضاعة التى باعهم اياها . ولعل ما قلناه هو المراد في الحديث أي الربح الكثير الفاحش ، لا أصلُ الربح . والاّ فان في ذلك ضرراً بيناً على الباعة الذين لهم اخوان كثيرون . ويمكن أن يقال أيضاً انه ليس من المروءة للمشتري أن يكلف صاحبه البائع أن لا يربح عليه أصلاً . لم نظفر بحديثٍ في هذا المعنى ، لكنه مما يلتحم مع آداب الاسلام ، ومع ميزان العدْل العام ، الذي نصبه الشارعُ بين أهل الإسلام . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنِ اشترَى سَرِقةً وهو يَعْلَمُ أنها سَرِقة فقد شَرِكَ في عارها واثْمِها ﴾

سرقة أى بضاعة أو متاعاً مسروقا ، فإن له نصيبا مع سارقه في العار والذنب

﴿ التاجرُ الجبانُ مَحْروم ، والتاجرُ الجسُور مَرْزوق ﴾

﴿ سافروا تَصِحّوا وتُرْزَقوا ﴾

في هذين الحديثين حضّ التاجر على الجراءة وقوة الارادة في الأشغال ، فلا يكون جباناً ولا متردّدا : فإن ذلك يؤدّي به الى الخيبة والحرمان غالباً . واذا احتاج الأمر الى السفر والضرب في البلاد البعيدة من أجل الرزق والربح

فليفعل ولا يَجْبُنْ فإن في السفر صحةً ورزقا

ومما يحسن ايراده هنا هذه القطعة الشعريّة في الحثّ على الكسب وطلب المال من طريق السفر والرحلة . وهو ما ينبغي انشاده للأحداث ، وتلقينهم اياه وتفهيمهم معناه :

(اقذفِ السرج على المُهْـ ـر وقرِّطْه اللجاما)
(ثم صُبَّ الدرع في رأ سي وناولني الحُساما)
(فمتى أطلبُ ان لم أطلبِ الرزقَ غـلاما ؟)
(سأجوبُ الأرض أبـ ـغيه حلالاً لا حَراما .)
(فلعلَّ الظعن يُقصي الـ فَقْرَ أو يُدنى الحِماما)

(قرِّطه اللجاما) أي ضع اللجاما من رأسه موضع القُرط وهو الزينة المعروفة التى تعلّق في شحمة الأذن . وقوله (صُبَّ الدرع الخ) أى ألبسني اياه . وقد أشار بذلك الى أنه يريد أن يتعرّض للأخطار فى سبيل انفاذ مقصده فهو يستعدّ لدفعها بتقلّد السلاح . و (أجوب) أقطع . و (يُقصي) يُبْعد . ويروى (يَنْفي الفقر) مكان (يقصي الفقر) ومعنى (يُدنى) يقرّب . و (الحِمام) الموت

الاقتصاد والاسراف

ومما له تعلق بما مرّ من المباحث بحث « الاقتصاد والاسراف » . و (الاقتصاد) باعتبار انه علم هو تدبير المال ، وتقليبه فى الوجوه المختلفة ليغزُر وينمو . وهو من أشهر العلوم العصرية ، ومن أهمّ ما يُعنى به الاجتماعيون والإداريون من بين علوم الحضارة والعمران ، فى هذه الازمان

وأكثر ما يراد (بالاقتصاد) فى اصطلاح الكتّاب ما نريده نحن فى هذا الفصل : وهو الإبقاء على شيء من المال وارصاده لأيام الاحتياج اليه بعد

انفاق جملة المال . ومثله (التوفير) لكن هذا المعنى لا يفهم من تينك الكلمتين في أصل الوضع اللغوي لأن (الاقتصاد) في اللغة معناه القصد في النفقة ، وهو العدل فيها والتوسّط بين الاسراف والتقتير . كما أن (التوفير) معناه اللغوي تكثير المال وتنميته وذلك باضافة غيره اليه . غير أنه لما كان الاعتدال في النفقة والتوسط بين التقتير والتبذير من شأنه أن يؤدي الى استبقاء بقية من المال كما يؤدي الى تراكم هذه البقايا وتكاثرها بإضافة غيرها اليها وقتاً فوقتاً وسنةً فسنة سمّوا الاستبْقاء على هذه الصورة (اقتصاداً) و(توفيراً) وضدهما (الاسراف) (والتبذير) . وهناك كلمة تفيد استبقاء شيء من المال في أصل الوضع اللغوي ، وحبذا لو يشيع استعمالها بين الكتّاب وهي (الإفضال) ومثلها (الاستفضال) : يقال (أفْضل) الرجل (واستفضل) إذا أبقى فضلا وبقية . وقد ورد هذا المعنى في الحديث الشريف وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ رَحِمَ اللهُ امْرءًا كَسَبَ طَيّبا ، وأنْفَقَ قَصْدًا ، وقَدَّمَ فَضْلاً لِيومِ فَقْرِه وحاجتِهِ ﴾

(كسب طيبا) أي من الرزق الحلال الطيب (وأنفق قصداً) أي عَدْلا من غير تقتير ولا اسراف . و (قدّم فضلاً) أي بقيّة يبقيها من نفقاته يدّخرها الى أن يقدّمها لنفسه في أيام عجزه وشيخوخته التي يرافقها غالبا الفقرُ والحاجة. فما أحسن هذا الأدب الشرعي ، وما أشدّ حاجة الناس اليه على اختلاف أدوارهم وأطوارهم

وإن الاقتصاد على هذه الصورة التي علّمنا إياها الشارع من الواجبات الشخصية التي ينبغي أن يراعيها الانسان في واجبِ الكسب والتجارة والزراعة والصناعة . فلا يدخل عليه المال من هنا ثم يُطْلِقُ يده فيه فيبدّده ويُتلفه ويخسر الواسطةَ التي يكون بها نيل الخيرات وفعْل المكرمات والفوز بالرَّغبات . كما

يجب عليه من جهةٍ ثانية أن لا يشحَّ بما يجمع من المال ، ويحرص عليه الى حدّ التقتير على نفسه وعياله في ضرورات معيشتهم ، فيُصبح كأنه فقير حقيقةً وهو غنى اسماً وصورة :

(ومن يُنفق الساعات في جمع ماله مَخافَةً فقر فالذي صنَعَ الفَقْرُ)

ومن الآيات الحاضّة على العدل في النفقة قوله تعالى :

﴿ والذينَ إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا ، وكان بينَ ذلك قَواما ﴾

﴿ ولا تَجْعلْ يَدَكَ مَغْلولةً الى عُنُقِكَ ولا تبْسُطْها كلَّ البسْطِ فتقْعُدَ مَلُوماً محْسورا ﴾

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة : منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَن اقتصَدَ أغناهُ الله ، ومَن بَذَّرَ أفقرَه الله ﴾

﴿ ما عال من اقتصد ﴾

ومعنى (عال) افتقر واحتاج

﴿ التَّدبيرُ نصفُ المعيشة ﴾

﴿ الاقتصادُ في النَفقةِ نصفُ المعيشة ﴾

ومحصّل القول أن الاقتصاد واستفضال شيءٍ من النفقة أساسُ التدبير المنزلي . ومن أول الواجبات الشخصية . وهو الملجأ الامين الذي يأوي اليه أرباب العائلات ، فيجدون فيه الهدوّ والراحة والسرور وحرية التمتع بالنعم والخيرات التي أفاضها الخالق تعالى عليهم . قال بعض كتّاب الغرب : قد عاينت الأمور وعانيتها ، ثم بعد تفكر عميق في الحياة لم أجد سوى أمرين ربما جلبا السعادة : (الاعتدال في مطالب النفس) و (حسن التّصرف في الثروة) وقد سمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الذي يحرص على ماله فلا

ينفقه ولا ينتفع به (عبداً ملعونا) مذ قال :

﴿ لُعن عبدَ الدرهم ، لُعن عبدُ الدينار ﴾

أي طُرد من رحمة الله ذاك الذي كأنه يعبد درهمه ودينارة من فرط حرصه عليهما ، وملازمته لهما . ومما ورد في الحثّ على التمتع بالمال والانتفاع به قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا آتاك اللهُ مالاً فليُرَ عليك : فانّ الله يُحبّ أن يُرى أثره على عبده حسنا ، ولا يُحبُّ البؤس ولا التباؤس ﴾

و (البؤس) شدة الاحتياج . و (التباؤس) أن يُظهر ذلك من نفسه بقوله أو فعله ، كأن يلبس خشنا ، ويأكل تافها . فالمال وحده لا يكون سبباً للسعادة مالم ينضم اليه عقل يساعد صاحبه على حسن التّصرف في المال ، وطرق الانتفاع به . وقد قال أحد الاقتصاديين « إن أوقية ذهب تحتاج الى قنطار عقل». وكم من الاغنياء من كانت ثروتهم سببا في خمولهم وموتهم الأدبي ، بل كم منهم من يجد في قصوره أتعاباً وآلاماً لا يجدها الفقير في كوخه . وقد ينظر صاحب الكوخ الى قصر الغنيّ الذي بجانبه فيشعر بلذة في النظر اليه لا يشعر بها صاحب القصر نفسه . فعلينا إذن قبل أن نسأل الله مالاً أن نسأله عقلا نهتدي به الى حسن الانتفاع بالمال . ومن جملة ما علّمنا إياه الشارع من الآداب الاقتصادية ما جاء في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أقللْ من الدَّين تعشْ حرُا ﴾

أي اجتهد في الاقتصاد والاستفضال والموازنة بين دخلك وخرجك : فلا تدع نفسك تحتاج الى الدَّين فتعتاده فتتراكم عليك الديون فيطاردك الدائنون ويعسرونك فتفقد حريتك وتصبح عبداً لهم. وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

﴿ الغفلةُ في ثلاثةِ أشياءَ ﴾ وعدَّ منها ﴿ غفلةَ الرجلِ عن نفسِهِ في الدَّيْن حتى يَرْكبَه ﴾

ومن وصاياه ﷺ ـ المفيدة في حفظ الثروة وعدم التفريط فيها ـ الاحتفاظُ بالعقار : فلا يبيعه صاحبه ، واذا باعه كان عليه أن يبادر الى شراء غيره : لأن المال النقد سريع الفرار وشيك الضياع فقال :

﴿ مَنْ باعَ داراً أو عقارا فلم يَرُدُدْ ثمنه في مثلِه فذلك مالٌ قِمِنٌ أن لا يُبارَكَ له فيه ﴾

قوله (فذلك) الخ اي فذلك المال النقد الذي أخذه ثمناً (قَمِنٌ) اي جدير أن يضيع ويخسر بركته والانتفاع به . وقال بعض كبار الاقتصاديين : الناس فريقان : فريق اقتصد وفريق أسرف . فجميع السفن التجارية ، والسكك الحديدية ، والمعامل الصناعية ، وسائر المشروعات الاقتصاديه التى تأسست عليها هذه المدنية العبقرية ـ هي كلّها من أعمال الفريق الذي اقتصد . أما الفريق الذي أسرف ثم اضطر أن يستدين لسدّ حاجاته فقد أصبح على تمادي الأيام رقيقاً للفريق الأول . وهي سنة الله في خلقه